منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

فيليب ريتور

الدروس الأولى في علم الاجتماع

ترجمة وتقديم:
د. محمد جديدي



الدروس الأولى في

علم الاجتماع

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي
Premières leçons de sociologie
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Presses universitaires de France
2013
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين منشورات ضفاف

"Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges SCHEHADE, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires Etrangères et Européennes, du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban et de l'Institut Français".

طبع في لبنان

الدروس الأولى في
علم الاجتماع

فيليب ريتور

ترجمة وتقديم
د. محمد جديدي





منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING



الطبعة الأولى
1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-02-1200-8



4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 537200055 212+
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: 966509337722+
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

المحتويات

القسم الأول

ما السوسيولوجيا؟

القسم الثاني

بعض المواضيع الرئيسية في السوسيولوجيا

تقديم المترجم

علم الاجتماع:
المشروعية، الموضوعية والآمال.

لم تعد علمية الاجتماع مسألة إبستمولوجية مطروحة مثلها مثل أية علمية قد تثار بشأن هذه المعرفة أو تلك، هذا الفرع أو ذاك، ذلك أن الجهة التي تطرح سؤال المشروعية والمعنى والمرجعية والصحة والصلاحية والمصداقية والحقيقة اتجاه مشروع معرفي كائنا ما كان ومن أية زاوية كانت إنما تريد أن تنصب نفسها مرجعا وحيدا، يوزع سندات الاعتماد كما توزعها السلطة السياسية على الجمعيات والأحزاب أو تنصّب نفسها إطارا دينيا لاهوتيا كما كان الإكليروس سابقا، يتحكم بصكوك الغفران ويمدها القساوسة برغبتهم وإرادتهم معوضين وحاكمين بذلك في مملكة الرب أو هي بمثابة هيئة قضائية تفصل في القضايا الشائكة التي تختلف حولها الإرادات الفردية والجماعية فتكون أحكامها نتائج حاسمة لفض النزاعات والخصومات.

وباختصار، فهي بهذا المنحى وكأنها بمثابة الفلسفة التي وصفها كانط كمحكمة تفصل بين المعارف وقطاعات الثقافة بوصفها تاجا للمعرفة.

من يعيد طرح سؤال مشروعية علم ما أو معرفة معينة لا ينطلق سوى من دوغما الحقيقة ومن موقع ميتافيزيقي متجاوز، مقوض؛ ومن اعتقاد باحتكار الحقيقة وبتهميش الاختلاف واحتقار الآخر والانتصار إلى الطرح الآحادي، الذي بات مرفوضا في ظل تعددية الأفكار والمصادر والمرجعيات والهويات والحقائق والفلسفات.

ومن يدعي الالتزام بالموضوعية والصدق والشفافية في العلم باسم العلم ليس مخولا ليحتكر تصنيف المعارف سواء أكان في خانة الطبيعيات أو الإنسانيات أو

الرياضيات وهو لا ينم عن تصور من داخل ذلك العلم بقدر ما يندرج في ميتا ذلك العلم وبالتالي فهو من خارجه وعليه فليس من حقه التحدث أو التصرف باسم علمه فيما لا يدخل في صلاحياته.

علم الاجتماع اليوم، وفي واقعنا العربي اليوم على وجه الخصوص، مطالب أكثر من غيره من العلوم الأخرى بتقديم تصورات وطروحات حول ما يعج به عالمنا من ظواهر يتوجب على السوسيولوجي الجزائري - مثلما يتوجب على نظرائه في ميادين إنسانية واجتماعية أخرى (فلسفية، تاريخية، سيكولوجية،...إلخ) بالدرجة الأولى قبل نظرائهم في مجالات العلوم الدقيقة والطبيعية والتكنولوجية تقديم مساهمتهم - وتمكين مجتمعهم من تحقيق الطفرة المنشودة التي تسير به وعلى خطى أكيدة، ثابتة نحو مصاف التقدم والرقي.

من هذه الزاوية تظل الآمال معلقة ومنتظرة من علم الاجتماع، من علم مخصص لدراسة الظواهر الاجتماعية والكشف عن أسبابها وغاياتها وما أكثر هذه الظواهر في مجتمعاتنا العربية لا سيما بعد الأحداث الكبيرة والتحولات العميقة سواء في مراحل الفترة الاستعمارية أو بعد الاستقلال وخاصة في الآونة الأخيرة بعد الهزات العنيفة التي ضربت المنطقة العربية بعد سنة 2010 وما اصطلح على تسميته بـ "الربيع العربي". ستظل مشكلة العنف واحدة من إفرازات هذه الأحداث، إذ يمثل تنامي العنف وتزايده داخل المجتمع العربي وفي ظل ارتباطه بالدين من مؤرقات ومعوقات كل نمو وتقدم بل إنها في كل مرة تنسف أي جهد لمحاولة تنظيم المجتمع واستقراره، تطوره وازدهاره.

سوف تظل جميع الجهود التي تبذلها الدول من أجل تنمية مجتمعاتها ماديا وبالاعتماد على نخبة العلماء في الطبيعيات والتكنولوجيات والمهندسين والخبراء والتقنيين في ميادين الاتصالات والنقل والزراعة ومختلف الصناعات من دون جدوى إن لم تواكبها جهود الباحثين في الإنسانيات عموما وفي السوسيولوجيا بشكل خاص.

ولن تثمر أية نتيجة البحوث والدراسات النظرية في أي مجال كان ولن يكون لها أي تأثير على المجتمع ما لم تصاحبها بحوث ودراسات المشتغلين الجادين بحقول

الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ والسيكولوجيا والأنثربولوجيا. ومختصر مفيد، لن تفلح جهود علماء فرع دراسي وبحثي لوحده ما لم تكن على صلة وتنسيق مع مجموعات المعرفة والعلم الإنساني.

ما كنت لأجازف بهذه الترجمة، وأنا أدرك جيدا أن من الزملاء والأصدقاء الأساتذة والباحثين الأكفاء من لهم القدرة المعرفية والخبرة الطويلة في حقل علم الاجتماع وهم أحق مني وأولى في القيام بهذا العمل لولا أني أردت اغتنام الفرصة التي أتيحت لي، لسببين اثنين:

السبب الأول: إنني على قناعة تامة بأن صلات علم الاجتماع بالفلسفة لم تفك نهائيا وتظل خيوط هذه الصلات مشدودة دوما لأن الفكر الفلسفي يتواجد في كل ميادين العلم طبيعيا كان أو اجتماعيا فما بالك لما يتعلق الأمر بعلم الاجتماع. وفي هذا التوجه أيضا ندعم وجهة نظر لطالما تميزت بطرح جاد في الإبقاء على هذه الروابط قائمة بين الدراسات والأبحاث الفلسفية ومثيلاتها الاجتماعية والإنسانية، أقصد مدرسة فرانكفورت - النظرية النقدية - التي حافظت على متانة العلاقة بين السوسيولوجيا والفلسفة فكانت تسمية المدرسة بمعهد الأبحاث الاجتماعية في بادئ الأمر دلالة كافية لإبراز هذه العلاقة.

السبب الثاني: إن تجربتي السابقة في العمل الترجمي من خلال نقل عملين ينتميان إلى مجالي الأبحاث السوسيولوجية والدراسات الفلسفية على حد سواء. فقد ترجمت أولا في سنة 2009 كتاب ماكس فيبر ومفارقات العقل الحديث لمؤلفه فيليب راينو Philipe Reynau، ولا تخفى أهمية وقيمة شخصية ماكس فيبر ليس كعالم اجتماع فحسب وإنما كفيلسوف ومنظر للحداثة مثلما أن الكاتب معروف. كما عملت على ترجمة كتاب هابرماس والسوسيولوجيا لصاحبه ستيفان هابر Stéphane Haber وقد نشر سنة 2012 ببيروت ولـ هابرماس أيضا مكانة متميزة في الفكر المعاصر بازدواج شخصية وشهرته لا كفيلسوف فقط ولكن أيضا كسوسيولوجي.

كل هذا شجعني على خوض هذه التجربة في تقديم هذا الكتاب الأساسي في علم الاجتماع ونقله إلى اللغة العربية مع بذل أقصى جهدي في الالتزام بالأمانة

الفكرية والموضوعية والحياد في نقل الفكرة والطرح بعيدا عن التأويل والتفسير إلا ما أملته الضرورة المنهجية والمعرفية كما عملت على ترك الإحالات باللغة الأصلية وأيضا قائمة المراجع الأساسية كما هي بلغاتها دون نقلها للعربية توخيا للاستزادة وتحقيقا لرغبة المؤلف في العودة إليها إن أمكن.

إني كل أملي أن يجد القارئ في هذا الكتاب ما يفيـــده ويلبـــــي حاجتـــه المعرفية.

مقدمة

ما السوسيولوجيا؟ فرع علمي أم أنها خطاب تنبؤي مرتب حول المجتمع، اتجاهاته ومصيره؟ علماء الاجتماع أنفسهم ليسوا دوما متفقين فيما بينهم في تعريف فرعهم لأنه، عن طريق هفوة، رأى ريمون آرون Raymond Aron بأن الاتفاق الوحيد المتبقي بين السوسيولوجيين يتعلق بالصعوبات التي تعترضهم في تعريف علم الاجتماع. هذا التنبيه الذي يستحق التأكيد على المخاطر التي تهدد كل فرع (السوسيولوجيا مثل غيرها من الفروع)، بمعنى الانفجار (الانشطار) والانعزال، مع هذا لا ينبغي أن ينسينا بأن السوسيولوجيا لم تعرف دخولها إلى الجامعة إلا في نهاية القرن التاسع عشر ومنذ ذلك الحين أمكنها استنباط عددا معينا من المنظورات التي سمحت بفهم أفضل لسلوكات الأفراد في المجتمعات.

لم تتحدد السوسيولوجيا أبدا بموضوع دراسة بحيث تحتكره، حتى وإن استعدنا الصيغة الشهيرة لإميل دوركايم Émile Durkheim، مؤسس المدرسة الفرنسية في السوسيولوجيا، يمكننا تصوره بوصفه العلم الذي يُكرّس لدراسة الوقائع الاجتماعية. فلا شيء مما هو "اجتماعي"، بمعنى ما يمس حياة الإنسان في المجتمع، ليس *قبليا a priori* غريب عن السوسيولوجي: هذا الأخير يمكنه دراسة العلاقات الأسرية مثلما يمكنه دراسة الرياضة، الحياة السياسية كما الممارسات الثقافية أو التسلية...

إذن ما الذي يميز السوسيولوجي عن زملائه (جيرانه)، السيكولوجي، الاقتصادي أو المؤرخ؟ إذا كان هذا السؤال يكتسي أهمية قصوى في نهاية القرن الماضي [أي في نهاية القرن التاسع عشر]، في الوقت الذي كانت تعمل فيه السوسيولوجيا من أجل افتكاك الاعتراف بها [كعلم]، فإنه اليوم دون شك يحوز على رهانات أقل. إن صراعات الحدود هي في الغالب صراعات عقيمة وتعيق نشر

المعارف: مثل المؤرخ، السوسيولوجي باستطاعته الانكباب حول الماضي لإدراك الحاضر؛ مثل السيكولوجي، فإنه يهتم بالتمثلات الفردية والجمعية؛ مثل الاقتصادي، يهتم بالكيفية التي يتم بها تبادل السلع والخدمات، المادية والرمزية بين الأفراد والجماعات. مع ذلك فإنه لن يستطيع الاختلاط بهم لأنه، خلافا للمؤرخ، لا يشكّل البحث عن الماضي اهتمامه الأول؛ وله، زيادة على السيكولوجي، انشغال بإعادة وضع الفرد ضمن سياقه الاجتماعي؛ إنه يهتم بالعلاقات الاجتماعية القائمة بين الأفراد أكثر من اهتمامه بميكانيزمات الإنتاج والتوزيع التي ينشغل بها الاقتصادي.

ما هو إذن إقليم السوسيولوجي؟ إنه ليس معطى دفعة واحدة إنما يتكون تدريجيا، في اتصاله بالفروع الأخرى: إذا لم يكن يبحث عن صياغة "قوانين" ذات مغزى كوني، فإن السوسيولوجي، بالاستناد إلى مبادئ منهجية والتي هي مبادؤه، يسعى إلى إنتاج معارف مبنية على الملاحظة الصارمة للـ "واقع الاجتماعي": على العكس من الفيلسوف، مثلا، فالسوسيولوجي لا يضع نظرية إلا بتأييد مادة تجريبية (إمبريقية) قادرة على إضفاء الصلاحية على قضاياه. يجب عليه أيضا أن يحذر من إدراج أحكامه عن القيمة في بحثه وأن يسهر على بناء موضوع دراسته بتحرره من بعض الرؤى للعمل الاجتماعي التي، بالرغم من فرض نفسها تلقائيا على الذهن، غالبا ما تتبين أنها خادعة (مغالطة).

إنه بناء على شرط احترام عدد معين من المبادئ حيث تجد السوسيولوجيا مكانتها بين العلوم الإنسانية: ممارسة **سوسيولوجيا الفهم** كما أرادها ماكس فيبر Max Weber بغية إدراك دلالة التي يمنحها فرد إلى فعله لا يقصي **التوضيع** المحبب إلى دوركايم الذي يفضل معالجة الوقائع الاجتماعية، كما لو أنها أشياء. فهذا الذهاب والمجيئ (التراوح) بين النظرية والملاحظة الامبريقية، بين جوار (السوسيولوجي في إطار بحث يمكن أن ينتهي إلى "العيش مع موضوعه") وبُعد (مسافة) (التحليل الاجتماعي لا يعود كذلك عندما يتوقف عند إعادة إنتاج خطاب الفاعلين) مساو إلى المسعى الاجتماعي: كل الصعوبة لهذه العملية تكمن، لاستعادة عنوان مؤلف نوربرت إيلياس Norbert Elias، في الكشف في الوقت

نفسه **بالتزام وتباعد** في عمله، وهو ما يحثه على إيلاء اعتناء خاص للنظرة التي يحملها حول موضوع دراسته، نظرة ليست أبدا "خارجية" تماما، بما أن السوسيولوجي هو أيضا (لا ينبغي نسيان هذا!) كائن اجتماعي.

فيما يتمثل في نهاية المطاف دور السوسيولوجيا؟ هل في فهم أفضل لما يدفع الناس في المجتمع إلى التصرف، أم إلى الدهشة أحيانا عندما تبين أن الاعتقادات العزيزة علينا خاطئة أو على الأقل عارضة، ربما أيضا إلى إرجاع، لما لا، المجتمع إنساني أكثر لأن، بالعودة مرة أخرى بـ دوركايم، نستطيع تقدير أنه، إذا لم تكن لديها أية فائدة اجتماعية، فلا تستحق السوسيولوجيا ساعة واحدة من العناء.

لكن لما كنا على قناعة بعكس ذلك، فقراءة ممتعة!

القسم الأول

ما السوسيولوجيا؟

- 1 -

المسعى السوسيولوجي

كيف تصبح سوسيولوجيا؟

ظهرت السوسيولوجيا بوصفها فرعا في غضون القرن التاسع عشر. لقد سبقتها معارف عديدة منحدرة من مختلف تيارات الفكر الباحثة عن تفسيرات وبالخصوص عن "علاجات" لـ "مشكلات" مرتبطة بالتحولات الاجتماعية الكبرى التي تمس المجتمعات الأوربية بدءا من نهاية القرن الثامن عشر. إن انبثاق "مسائل اجتماعية" من نوع جديد أعطت بهذا ميلاد السوسيولوجيا التي، تدريجيا، بانعتاقها من الفلسفة الاجتماعية، صاغت تساؤلاتها الخاصة ذات المغزى العلمي، بمساعدة المبادئ المعلنة منذ نهاية القرن الماضي [التاسع عشر] من قبل "آبائه المؤسسين" [أي الرواد].

أ – ظهور السوسيولوجيا في القرن التاسع عشر

1– برزت السوسيولوجيا إلى الوجود بوصفها فرعا علميا أثناء القرن التاسع عشر.

◀ **لقد تميز هذا القرن (19) في أوربا بتحولات عميقة. ذلك أن التحولات السياسية** تندرج ضمن امتداد الثورة الفرنسية. وقد أفضى انهيار **النظام القديم**(*)

(*) النظام القديم وقد كتبناه هنا بتغليظ حروفه بالعربية وبالفرنسية يكتب بحرف majuscule الذي تبدأ به الجملة أو تكتب به أسماء الأعلام أو الأماكن أو المذاهب وكتابته بهذه الكيفية هنا المقصود منها تمييزه عن أي نظام من أي نوع كان سياسي أو اجتماعي أو غيره والإشارة هنا إلى النظام الملكي الذي كان سائدا قبل الثورة الفرنسية سنة 1789. [المترجم]

l'Ancien Régime إلى إعادة النظر في النظام التقليدي المؤسس على الملكية المطلقة، انقسام المجتمع إلى أنظمة وكذا المكانة المركزية الممنوحة للدين في الحياة الاجتماعية. فقد عملت الثورة الفرنسية، بمناداتها بالمساواة القانونية بين المواطنين، على مراجعة أسس النظام السياسي. فهذا الأمر لم يعد من الآن فصاعدا من إرادة الأمير بما أن المطلقية مرفوضة باسم المناداة بمبادئ جديدة مثل الحرية، العقل، التقدم... التحولات الاقتصادية والاجتماعية مرتبطة بالثورة الصناعية التي، من نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، هي أصيلة بريطانيا العظمى، انتشرت تدريجيا في البلدان الأوربية الأخرى، ثم الولايات المتحدة واليابان.

لقد تميزت بالانتقال من مجتمع ريفي إلى مجتمع حضري، وهو ما أدى إلى انقلاب عميق في البنيات الاجتماعية الموجودة (اختفاء تدريجي، مثلا، التضامن القروي القائمة على مجموعة من التقاليد والممارسات الاجتماعية مثل تلك التي نجدها في الاحتفالات الشعبية، طقوس المرور...). يؤكد عالم الاجتماع فرديناند تونيس (1855- 1936) Ferdinand Tönnies، في 1887، على التعارض بين نمطين للتنظيم الاجتماعي: الجماعة والمجتمع. الأول، يهيمن عليه الروابط التقليدية، العاطفة وروح المجموعة يرتكز أساسا على الأسرة وعلى التضامن المحلي بينما الثاني، الذي يستند أكثر على المصلحة الفردية، الحساب والعلاقات غير الشخصية، يحاول أن يفرض نفسه داخل المجتمع الصناعي.

في الوقت نفسه، فإن **الثورة** الزراعية المنجزة أثناء القرن الثامن عشر سمحت تدريجيا للنشاطات الصناعية بالاستفادة من تدفق اليد العاملة. وبالفعل فقد ترافق نمو الصناعة، مع تحضر كثيف ناتج أساسا عن الهجرة الريفية. بهذا وجد تنظيم المجتمع نفسه في تحول عميق، وهو ما عدّل بشكل كبير "التوازنات" القائمة بين مجموعات اجتماعية: هكذا نقف، ضمن عملية التحضر، على تشكيل الطبقة العاملة، إلى نمو مستمر للبرجوازية وكذا إلى انخفاض نسبي للنبلاء.

◀ **تساءل أهم السوسيولوجيين في القرن التاسع عشر عن حجم التحولات المجتمعات الأوربية التي جرت أمام أعينهم في وقت كانوا فيه بصدد تصميم أعمالهم. إن أفكار ثلاثة وجوه رئيسية لسوسيولوجيا القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مشبعة بعمق.**

انشغل إميل دوركايم (1858- 1957)Émile Durkheim، مؤسس المدرسة الفرنسية في السوسيولوجيا، بأسس التماسك الاجتماعي وتطوره، وعلى هذا درس الانتقال من التضامن الميكانيكي القائم على التشابه، خاصية المجتمعات التقليدية، إلى التضامن العضوي المبني على التكامل والناتج عن عملية تقسيم العمل، التي تثبتت في المجتمع الصناعي.

اهتم كارل ماركس (1818 - 1883) Karl Marx، مناضل ثوري، فيلسوف، اقتصادي لكن أيضا سوسيولوجي، في وقت يُعد فيه هو مُنظّر الاشتراكية في جانبها العلمي، بعملية التطور الرأسمالي وحاول فضح تناقضاته الداخلية بتأكيده (بإلحاحه) بشكل خاص على التعارضات الطبقات الحتمية، بحسبه، داخل المجتمع الرأسمالي والتي تنذر ببروز مجتمع من دون طبقات: المجتمع الشيوعي.

مهّد ماكس فيبر (1864 - 1920) Max Weber، واحد من أوائل وأهم السوسيولوجيين الألمان، الطريق إلى السيوسيولوجيا المقارنة بالتساؤل عن خصوصيات الحضارة الغربية، المتميزة، بحسبه، بعملية عقلنة أو بصيغته الشهيرة "نزع السحر عن العالم" «désenchantement du monde»، التي تترجم اللجوء المتنامي إلى التوقع والحساب وكذا إلى التخلي التدريجي عن المصادر السحرية في جميع الميادين الحياة الاجتماعية: من العلم إلى الفن مرورا بالدين، السلطة السياسية والاقتصاد.

إذا كانت أعمال أهم السوسيولوجيين في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تشهد على الاهتمامات الاجتماعية لزمانهم، فإنها كذلك ترتكز على معرفة أولية، والتي تعلقت، مسبقا باستخلاص معارف، انطلاقا من ملاحظة دقيقة للمجتمع[1].

(1) Sur la sociologie avant la «sociologie», Johan Heilbron, Naissance de la sociologie, Marseille, Agone, 2006.

2 - معرفة حول المجتمع قبل السوسيولوجيا

◄ **لم يكن للعلم الاجتماع الناشئ أن يبرز بوصفه فرعا مكونا من أدمغة بعض "المبتكرين"**. فهناك جملة من التساؤلات التي سبقت أو صاحبت نشأته. إن الاختبار الذي يتضمن تحديد أصل السوسيولوجيا بالضبط بدا دون جدوى لأنه يعود، عند الانطلاق في بحث غير منته، بنشأته إلى ماضي بعيد على نحو دائم (*"هل وجد" فكر سوسيولوجي"* جنيني *لدى أفلاطون؟"*)، مع ما في هذا من خطر المفارقة التاريخية التي يمكن أن يحملها هذا السؤال. ومع ذلك فمن المفيد التأكيد على تساؤلات مختلفة، أغلبها سابق على ترسيخ الفرع السوسيولوجي، الذي، ومع الاختلاف الموجود حول نقاط عديدة، يتقاسم رغبة اكتشاف المبادئ التي تحكم تنظيم الحياة في المجتمع.

- انتقدت مجموعة من الكُتّاب التقليديّين، من الكاتب البريطاني إدموند بيرك Edmund Burke (1797 - 1729) إلى الكتّاب الفرنسيين جوزيف دو ماستر Joseph de Maistre (1821 - 1753) ولويس دو بونالد (1754 - 1840) Louis de Bonald، النزعة الفردية التي نادت بها الثورة الفرنسية التي قرنوها بتجريد محض خالي من المعنى لأنه، بحسبهم، لا ينجم المجتمع عن سبب وحيد، متجاهلا لشبكات العلاقات واقعية التي تحصر الفرد في جماعة الانتماء. التيار التقليدي يهم السوسيولوجيا لأنه يخلق، بدءا من رؤية نقدية - في الآن نفسه للثورة الفرنسية وللتصنيع - تحقيقات واسعة: تميز عمل فريدريك لو بلاي Frédéric Le Play (1882 - 1806)، وقد كان مهندسا، عضوا بمجلس الشيوخ إبان الإمبراطورية الثانية (1867) وبالخصوص مؤلفه *العمال الأوربيون* *Les Ouvriers européens*(1855) الذي تميّز بانشغال حاد في وصف ظروف حياة الأوساط الشعبية وأفضى إلى تحقيق أفرودة [1]. يتعلق الأمر، بممارسة الملاحظة المباشرة، في جمع أكبر عدد من الوقائع، التي تعكس ظروف المعيشية للحياة العمالية. إن عمل لو بلاي Le Play، باستناده على تحقيقات ميدانية موسعة، مهد الطريق أمام المنهج الأتنوغرافي الهادف إلى جمع جملة من المعلومات حول مجموعة سكانية وسمح

بممارسة مقارنات في الزمان وفي المكان. مع ذلك فهذا المسعى الذي لا يقبل أن يختزل في بعده الكيفي، لأنه يحاول أيضا تكميم المعطيات المجمعة [قياس البيانات]: فعلا، بحث لو بلاي عن استخلاص عبر تحقيقاته [استطلاعاته] أداة قياس موضوعية، مثل الميزانية العائلية، التي وظفها كمؤشر للنمط العمالي للحياة وتحولاته. مع هذا يبقى عمل لو بلاي بالأساس معتنيا (منشغلا) بمشروع شامل للإصلاح الاجتماعي، وفقا لعنوان مؤلفه الصادر في 1864، الذي يحبذ تعزيز (تعضيد) البنيات العائلية، بالخصوص العائلة السلالة (التي تجمع تحت نفس السقف الأب، الأم، الطفل الوارث، زوجته، أبناؤهم والآباء الآخرين الذين هم عزاب) ويحبذ الأبوية (التعاون بين أصحاب العمل والعمال) وكذا الاحترام المطلق للملكية الخاصة.

1- **المونوغرافيا monographie** هي دراسة وصفية لظاهرة محددة مثل قرية، قبيلة...إلخ [الكاتب] ويصطلح عليها بأفرودة لأن البحث فيها يخصص ويفرد لموضوع بعينه بمعنى البحث أو المذكرة التي تخصص في كتابة موضوع واحد وغالبا ما تكون من قبل كاتب واحد وذلك ما يدل عليه تركيب اللفظ من مونو أي واحد للموضوع والكاتب وغرافيا أي الوصف والكتابة وهي عموما ما يفرد كمحاولة للكتابة في موضوع بعينه. [المترجم]

- لقد أوجدت "القضية الاجتماعية" التي كانت تشير في القرن التاسع عشر مجموع المشكلات المرتبطة بظهور العالم العمالي تيارا نقديا للتصنيع، "الاشتراكية الطاوباوية"، التي تقمصها في فرنسا كل من كلود هنري دو سان سيمون (1760 - 1825) Claude Henri de Saint-Simon، شارل فورييه (1772 - 1837) Charles Fourier وبيار جوزيف برودون (1809- 1865) Pierre Joseph Proudhon. إنها تهم كذلك الطبقات الحاكمة: تكديس السكان البؤساء في المدن يثير مخاوف متصلة بالاختلاط. هكذا أنجزت عديد الدراسات بواسطة السلطات العمومية وجمعيات العلماء بغية الإحاطة بهذه الساكنة "ذات أو مصدر المشاكل": أحد أهم التحقيقات

قاده الدكتور فيلارمي Dr Villermé الذي، في *جدول الحالة الفيزيقية والمعنوية للعمال في مصانع القطن، الصوف والحرير* (1840)، رسم صورة دون مجاملة حول ظروف وأوضاع العمال.

- تأثرت السوسيولوجيا الناشئة أيضا بتقليد آخر يندرج ضمن العقلانية المنحدرة من الأنوار: فهي تأخذ من ملاحظة مونتسكيو (1689-1755) Montesquieu الذي نادى، في *روح القوانين* (1748) *L'Esprit des lois*، بعدم استخلاص مبادئه من أفكاره وأحكامه المسبقة إنما من طبيعة الأشياء ويرغب بالتعلق "بما هو كائن وليس بما ينبغي أن يكون" وكذلك بأعمال كوندورسيه (1743 - 1794) Condorcet والذي مهد في كتابه *مقدمة لجدول تاريخي لتقدم الذهن البشري* (1793) *Esquisse d'un tableau historique des progrès de l'esprit humain* "للرياضيات الاجتماعية"، بمعنى وضع قوانين علمية مبنية على ملاحظة الانتظامات الإحصائية. فالتقدم المحقق، بدءا من القرن التاسع عشر، عن طريق الإحصاء، المكلف في الأصل، باسم الدولة، للديموغرافيا (تعداد السكان le dénombrement de la population)، سمح لها باكتساح ميادين جديدة. آخذة تسمية "إحصاءات أخلاقية"، لتمتد إلى الاقتصاد، بغية تقييم إمكانات موارد الدولة، مثلما امتدت إلى قضايا العدالة: هكذا عرف الإحصاء القضائي تطورا سريعا في فرنسا مع إقامة ابتداء من 1827 *مجلس عام للإدارة القضاء* *Compte général de l'administration de la justice* ومع أعمال غابريال تاردي (1843 - 1904) Gabriel Tarde. العالم الرياضي، الفلكي والإحصائي البلجيكي أدولف كيتليه (1796 - 1874) Adolphe Quetelet سعى أيضا في تحليل ما أسماه "الميل إلى الجريمة" وتوزيعه في المجتمع بمساعدة سلسلة إحصائية موجهة لقياس دوامه[1].

---

(1) Sur ces points, Alain Desrosières, La Politique des grands nombres. Histoire de la raison statistique, Paris, La Découverte, 1993.

◀ في تقاطع هذه التقاليد المختلفة، بـرز التيـار الوضـعاني le courant positiviste الذي تميز، حسب مصطلحات ممثله الرئيسي، أوغيسـت كونـت Auguste Comte (1857 - 1798)، عن طريق رفض "العقل الميتافيزيقي". بالنسبة للنـزعة الوضعية، بالفعل، كل معرفة لا تصدر إلا من الملاحظة والتجربـة. كـان كونت هو مبتكر مصطلح "سوسيولوجيا" «sociologie»، يتحدث كـذلك عـن "فيزياء اجتماعية" «physique sociale» ليشـير إلى دراسـة "علميـة" للعـالم الاجتماعي لأنه، واثق في تقدم العلم، فقد رأى بأن السوسـيولوجيا وفي مسـتقبل قريب يمكنها أن تبلغ صرامة "علوم الطبيعة". هكذا استنبط قانون الحالات الثلاث، والذي بحسبه فإن تطور الإنسانية يمر بمراحل متتابعة.

الحالة التيولوجية (اللاهوتية) يهيمن عليها ما فوق الطبيعي وتتطابق تاريخيا مع العصر الوسيط.

الحالة الميتافيزيقية تميزت ببروز مبادئ مجردة وأعلنت عن فكرة عامـة عـن الإنسان وانتصرت في ظل الثورة الفرنسية.

الحالة الوضعية تطابق مرحلة النضج المميزة، عند ظهور المجتمـع الصـناعي، باكتشاف، بفضل الملاحظة العلمية، المبادئ المنظمة للمجتمع.

وإذا كان فكر كونت، تطوريا بشكل عميق (يفترض أن البشرية تطـورت عبر مراحل تمثل كل مرحلة تقدما مقارنة مع سابقتها)، قد انتقـد حـول هـذه النقطة، فإن انشغاله بتزويد السوسيولوجيا بقواعد علمية مثّل إسهاما معتبرا وتأثيره كان كبيرا على السوسيولوجيا الفرنسية الناشئة وخصوصا على إميـل دوركـايم Émile Durkheim.

ب – السوسيولوجيا والمسعى العلمي

1- يرتبط قيام السوسيولوجيا باعتبارها فرعا علميا ارتباطا وثيقا بعمل إميـل دوركايم الذي حدد مبادئ المنهج السوسيولوجي.

تحوّل دوركايم وهو خرّيج فلسفة، سريعا نحو دراسة الحياة الاجتماعية وبحث عن تزويد السوسيولوجيا بمنهجية خاصة. في مؤلفه، *قواعد المنهج السوسيولوجي*

Les règles de la méthode sociologique(1895)، أكد على أن "**الوقائع الاجتماعية ينبغي أن تعالج كأشياء**"، وهو ما يعني أن السوسيولوجي عليه أن يحافظ على مسافة معينة إزاء موضوع دراسته حتى يتجنب منهجيا جميع الأفكار المسبقة، بمعنى الأحكام المسبقة والبديهيات الخاطئة التي تهدد، في كل لحظة، التسرب ضمن تحليله. إن السوسيولوجي، مثل كل علمي، يجب عليه أن يحذر من وهم المعرفة المباشرة لأنه فقط بعد أن ينتهي من تشكيل مسبقا وبصرامة موضوع دراسته حيث يكون بمقدوره أن يقوم "باكتشاف".

◀ **بكيفية ما، تبدو العقبات معتبرة جدا في السوسيولوجيا وفي العلوم الاجتماعية عامة (السيكولوجيا، الأنثربولوجيا، الاقتصاد، العلوم السياسية...)** أكثر مما هي عليه في علوم الطبيعة. إن دراسة الظواهر الاجتماعية لا تشكل إلا في النادر "احتكارا" حقيقيا للسوسيولوجي: يأخذ تحليله مكانة بين مجموع التدخلات (رجال السياسة، صحافيين، إداريين... بل من الجميع واحد) الهادفة إلى تحديد ما هي "المشكلات الاجتماعية" الحالية. إذا لم يكن بمستطاع السوسيولوجي الاختفاء في برج عاجي كي ينعزل عن العالم الاجتماعي الذي يفترض أن يدرسه، فإنه لن يقدر يستعيد أكثر لصالحه، من دون نقد مسبق، القضايا المطروحة من قبل آخرين، مع اهتمامات في الأغلب بعيدة عن المعرفة العلمية كانشغال وحيد.

أن يتم التساؤل إذا ما كانت "الطبقة الشغيلة في طريقها إلى الزوال" أو الإحاطة بأسباب "تذمر الضواحي" فذلك يبدو مشروعا غير أن تصور هذه المواضيع، من وجهة نظر سوسيولوجية، من الضروري أن تثار بطريقة أخرى ذلك أن اللغة المستعملة في وصف هذه "الوقائع" الاجتماعية تروج مسبقا في ذاتها جملة من "المشكلات" التي يتوجب على السوسيولوجي حلها. إن مسألة "نهاية الطبقة الشغيلة"[1].

(1) Voir Stéphane Beaud, Michel Pialoux, *Retour sur la condition ouvrière*, Paris, Fayard, 1999.

تدعو، فعلا، أن نتساءل مسبقا عن التحولات المستجدة في العالم العمالي منذ – على الأقل – الأزمة الاقتصادية لسنة 1973 (تطور رقمي، تحول في الوظائف العمالية، بروز دائم للبطالة الجماعية والتغيرات الحاصلة في طريقة "عيش" الظرف العمالي). من المناسب كذلك الاهتمام بأثر رجعي بتنوع العالم العمالي الفرنسي (اختلافات في الحالات (الوضع)، في المؤهلات لكن أيضا في الخصوصيات المرتبطة بالتقاليد المحلية، أنماط المهن) حتى تتحطم الصورة المثالية لـ "طبقة عمالية موحدة" من شأنه أن يعقبها "انهيار قاس" يمنع، على الخصوص، إدراك إعادة التركيب الحالية.

أما فيما يتعلق بـ "تذمر الضواحي"[1]، ينبغي التذكير بما يحتجه هذا التساؤل من ضبط للمشهد الصحفي والذي يقيم في الغالب مقارنة "وحشية" بين الوضعية الفرنسية والوضعية الأمريكية، والتي من المفترض أن تحاكي فيها الأولى "نموذج" الثانية. وإذا كان من الصحيح أن بعض "الوقائع الموضوعية" موجودة في الضواحي الفرنسية مثلما هي في "الغيطوهات الأمريكية" (حضور قوي للأقليات العرقية، زيادة محسوسة وسريعة للسكان وللأحداث على وجه الخصوص، نسبة بطالة مرتفعة)[2]، فإن خصائص عديدة تفصل بوضوح بين العالمين: فرق في الحجم لأكثر من واحد إلى عشرة والذي يجعل من الغيطو الأمريكي "مدينة" حقيقية بينما تبقى الضاحية الفرنسية حيا فرعيا (من محيط المدينة)، التمييز العرقي والذي هو ميزة غالبة للغيتو في حين التعددية الإثنية هي القاعدة في أحياء الضاحية. علاوة على هذا، فإن مدى الفقر والجريمة، تدهور إطار الحياة يبلغ في الغيتو أبعادا بالكاد تكون متخيلة في الضاحية[3]. إذن يوجد هنا فرق في الطبيعة وليس في الدرجة فقط بين الوضعيتين. وينبغي بالتالي

(1) Les remarques qui suivent s'appuient sur P. Champagne, «La construction médiatique des malaises sociaux», *Actes de la recherche en sciences sociales*, no 90, 1991, et L. Wacquant, «Banlieues françaises et ghetto noir américain: de l'amalgame à la comparaison», *French Politics & Society*, no 4, 1992.

(2) Didier Lapeyronnie, *Ghetto urbain*, Paris, Robert Laffont, 2008.

(3) Pour un exemple, Philippe Bourgois, *En quête de respect. Le crack à New York*, Paris, Seuil, 2001.

الحذر من المقارنات المتسرعة، التي يتمثل هدفها (اللاواعي) في الغالب الأعم جعل مشكلة ما "مأساة" وهو ما تزيدها غالبا غموضا بمحاولة تبسيطها.

يجازف السوسيولوجي إذن بالانجذاب نحو ميدان غير ميدانه عندما ينساق إلى إغراء نزعة نبوئية prophétisme، ولكونه ليس له من سلاح سوى "تيار العصر" سيجد نفسه محملا (مكلفا) بالإعلان عن المستقبل ('*إلى أي شيء سيشبه المجتمع الفرنسي في 2050؟*") عندها سنتذكر فن العرافة و"تنبؤاته" الذي ينبغي النظر إليه وتقييمه بكثير من الحذر.

◄ **يجب على السوسيولوجي أن يتسلح منهجيا حتى يتجنب البديهيات الكاذبة ويحدد مجددا المشكلة** التي تطرح عليه انطلاقا من انشغالاته، أي إنتاج المعارف. لقد حذر إميل دوركايم من قبل من هذه المخاطر ونادى باللجوء إلى جملة قواعد هدفها ضمان القطيعة مع الأفكار المسبقة. ودافع على الخصوص على استعمال الإحصائيات وكذا اللجوء إلى **منهج التعريف المسبق** حتى يأخذ مسافة (يباعد) إزاء الدلالات "العادية" لظاهرة ما. في مؤلف صار كلاسيكيا للسوسيولوجيا، *الانتحار* (1897)*Le suicide* بين دوركايم أن هذا الفعل، الذي يبدو ظاهريا، كل خصائص الفعل الفردي يستجيب، في الواقع، إلى انتظامات اجتماعية. هكذا يقترح تعريفا أوليا للانتحار يفهم باعتباره "كل حالة موت تنتج مباشرة أو غير مباشرة عن فعل إيجابي أو سلبي، منجز من قبل الضحية ذاتها وهي تعلم أن ذلك هو النتيجة". لقد تضمن، على سبيل المثال، في موضوع أبحاثه تضحية المحارب أو الشهيد وبذلك فقد تميز عن التعريف المألوف للانتحار. فقد اهتم دوركايم في الحقيقة من خلال هذه الدراسة لما اسماه **النسبة الاجتماعية للانتحار** التي تقيس "العلاقة بين العدد الإجمالي للموتى الإداريين والسكان من كل عمر ومن كل جنس". هكذا سمح له استعمال الإحصائيات بمعاينة انتظام لنسبة الانتحار على مرحلة طويلة وفهم، انطلاقا من متغيرات مثل، العمر، الجنس، مقر الإقامة، الدين، الحالة المدنية...، الخصائص الاجتماعية للمنتحرين بغية تفسير المحددات العوامل الاجتماعية التي تقف وراء هذا الفعل.

• هناك سبيل أخرى لإحداث قطيعة ممكنة مع الأفكار المسبقة تتمثل في تحقيق ميداني. فالسوسيولوجي الأمريكي صمويل ستوفر Samuel Stouffer وفي دراسته الجماعية المنشورة سنة 1949 حول "الجندي الأمريكي"[1] لاحظ أمرا مذهلا: على الرغم من أن الفرص "الموضوعية" في الترقية موجودة أكثر لدى القوات الجوية منها في الجيوش البرية، فإن الرضا المهني المعبر عنه لدى هذا الأخير أهم مما هو عليه لدى الطيارين. هكذا وكما كتب السوسيولوجي الأمريكي روبرت ميرتون (1910 – 2003) Robert Merton، "كلما كان معدل الترقية مرتفعا، كانت آراء الناس إيجابية حول حظوظهم في الترقية". هذه المفارقة التي كُشف عنها بواسطة التحقيق أفضت إلى ميلاد مفهوم سوسيولوجي: **الإحباط النسبي**. فقد اعتبر المحققون أن المهم حقا بالنسبة إلى الفرد ليس هو الوضعية "الموضوعية" التي يحياها بقدر ما هي معايير **مجموعته المرجعية**، بمعنى تلك التي يتطابق دوما معها والتي يمكنها فضلا عن ذلك أحيانا أن تختلف عن تلك التي ينتمي إليها واقعيا. فترقية سريعة ليست حقيقة متخيلة بالنسبة لمن ينتمي إلى تنظيم (مثل الجيش البري في الولايات المتحدة في زمن تحقيق "الجندي الأمريكي" بداخلها الترقيات هي في العادة بطيئة ونادرة. إن نفس الترقية تبدو بديهية بالنسبة لمن يرتقي ضمن مجموعة ذات حركية قوية، لاسيما، مثلا، لصاحب الشهادة العليا. وحينما لا تتم، فهذا الفرد يصاب بإحباط أكيد بما أنه لا يرضي توقعاته، أي المعايير السارية في مجموعته المرجعية. إذن الإحباط الاجتماعي غير مرتبط فحسب بوضعية "موضوعية" إنما بشكل أكبر بالإدراك الذي نكوّنه. إنه ينتج كذلك من اختلال بين الآمال المختلقة من قبل الأفراد والوضعية التي عليهم أن يواجهوها لاحقا: هذه النظرية تقول مبدئيا بـ "الحس المشترك" عبر تبيانها أنه ليس من الضروري أن يكون الأفراد الموجودون في الوضعية "الموضوعية" الأكثر سوءا هم من يبدون شعورا بالإحباط وأنهم هم من ينتهون، بعد ذلك، إلى إظهار استياءهم.

(1) S. Stouffer et *al.*, *The American Soldier*, New York, Wiley, 1949.

2- تم تحديد موضوع دراسة السوسيولوجيا من قبل إميل دوركايم في قواعد المنهج السوسيولوجي (1895) Les *Règles de la méthode sociologique*

في محاولته الصعبة لإقامة علم الاجتماع كتخصص في حد ذاته (وقد ظل لفترة طويلة صاحب كرسي علوم التربية، ولم يتم، فعليا، إلا في عام 1913 حيث حصل على لقب أستاذ علم الاجتماع وعلوم التربية في جامعة السوربون)، سعى دوركايم لإعطاء علم الاجتماع موضوع خاص، والذي بحسبه، يجب أن يميزه عن التخصصات الأخرى الموجودة مثل علم النفس، التاريخ، الاقتصاد...

◄ **بالنسبة إلى دوركايم، فإن تفرّد السوسيولوجيا (علم الاجتماع) يكمن في دراسة الواقعة الاجتماعية،** التي لا يمكن ردها، بسبب ميزاتها الخاصة، إلى حقيقة سيكولوجية والتي تستوجب بحثا نوعيا. رفض دوركايم دفعة واحدة، باختياره دراسة الانتحار، رفض بهذا المقاربات السيكولوجية وأثبت أن (خلافا للمظاهر) أن هذه الظاهرة تشكّل حقا حدثا اجتماعيا، بمعنى أن السياق الاجتماعي يمارس تأثيرا قابلا للقياس عن طريق تحليل التغيرات في نسب الانتحار. يفي الانتحار بمعايير الحقيقة الاجتماعية المعلنة في قواعد المنهج السوسيولوجي: حسب دوركايم، فإن الحقيقة الاجتماعية، تكمن "في كيفيات التصرف، التفكير والشعور، الخارجة عن الفرد، والتي تكون مزوّدة بسلطة قسرية بمقتضاها تفرض نفسها عليه". بعبارة أخرى، تمثل الحقيقة الاجتماعية الخصائص الآتية: يتعلق الأمر بظاهرة جماعية، سابقة وخارجة عن الضمير الفردي الذي يمارس عليه الظاهرة الجماعية قيدا (ضغطا). ألحّ دوركايم في **القواعد** على الأمر الآتي وهو أن الفرد، باعتباره كائنا اجتماعيا، يستبطن مجموعة من المبادئ التي تؤثر على أفعاله دون أن يكون بالضرورة مدركا لذلك.

"عندما أتخلص من مهمتي كأخ، كزوج أو كمواطن، عندما أنفذ الالتزامات التي تعهدت بها، فإنني أفي بالواجبات التي حُددت، خارج ذاتي وأفعالي، في القانون وفي الأخلاق."

◀ **إذا كان ميدان السوسيولوجيا هو دراسة الوقائع الاجتماعية التي ينبغي أن تفهم بوصفها "أشياء"، فعندئذ على السوسيولوجي أن يركز على تفسير "الاجتماعي بالاجتماعي"** ومن ثم تجنب كل نوع لتفسير "خارج-اجتماعي" «extra-sociale» الذي هو ليس من دائرة اختصاصه. في *الانتحار Le Suicide*، فحص دوركايم حالة بحالة التفسيرات على أساس علم النفس المرضي والتي تنسب خصوصا الانتحار إلى الجنون، التفسيرات القائمة على الوراثة، المناخ والتقليد والتي حرص كثيرا على إبطالها بالتتابع. **فقد تأتى فيما بعد، باستناده على** الإحصائيات، إلى استخلاص تصنيفا للانتحارات والذي ميز من خلاله ثلاث أشكال رئيسية: الانتحار الأناني، الانتحار الغيري، الانتحار اللامعياري (اللانظامي) ومهد لرابع: الانتحار الحتمي. يوجد، بالنسبة إلى دوركايم، علاقة بين نسبة الانتحار المعاينة ومستوى الاندماج والانتظام الاجتماعي.

- الانتحار الأناني Le suicide égoïste هو مظهر لاندماج اجتماعي ضعيف جدا (عندما يمارس المجتمع تأثيرا ضعيفا على الفرد، تظهر "فردنة مفرطة") وتُلاحظ في ميادين مختلفة من الحياة الاجتماعية: فمعدل الانتحار، مثلا، مرتفع نسبيا لدى البروتستانت منه لدى الكاثوليك وهو أهم لدى الكاثوليك منه لدى اليهود. بالنسبة إلى دوركايم، تفسير ذلك يكمن في درجة النزعة الفردية الخاصة بكل دين: فهذه النزعة ضعيفة جدا عند اليهود حيث أن الشعور بالانتماء إلى جماعة قوي جدا، وهو أكثر اعتبارا عند الكاثوليك الذين يعرفون مع ذلك اندماجا اجتماعيا قويا مرتبط بتأثير الكنيسة بينما "الاختبار الحر" هو الأكثر توجها عند البروتستانت وأن الإكليروس (رجال الدين) أقل حضورا في الحياة الاجتماعية. تمكن دوركايم من أن ينتهي إلى أن الدين يحفظ من الانتحار، لا لأن العقيدة الدينية تندد بهذا الفعل، بل لأنها تشارك في الاندماج الاجتماعي للأفراد بإدراجهم ضمن مجموعة، وهو ما يفضي إلى تعزيز علاقاتهم الاجتماعية.
- على العكس من الانتحار الأناني، يتميز الانتحار الغيري Le suicide altruiste، باندماج اجتماعي قوي. كما كتب دوركايم: "عندما ينفصل الإنسان عن

المجتمع، يقتل نفسه بسهولة، يقتل نفسه أيضا لما يكون مندمجا بقوة." هذه الحالة من الانتحار سمة للمجتمعات البدائية حيث تكون النزعة الفردية ضعيفة. يوجد كذلك في المجتمعات الحديثة في حالة البقاء على قيد الحياة، كما هو الحال في المجتمع العسكري (لاحظ دوركايم أن نسبة الانتحار مرتفعة كثرا لدى الجيش منها لدى المدنيين)، حينما يفرض نفسه ضغط التراتبية على الفرد.

- أخيرا حدد دوركايم **الانتحار اللامعياري (الفوضوي) Le suicide anomique** (هذا النوع من الانتحار هو الذي أولاه أهمية كبيرة) هو ما يتطابق مع نقص في الانتظام الاجتماعي ويتعارض مباشرة مع الانتحار الغيري المرتبط بانتظام اجتماعي مفرط. يمثل الانتحار الشاذ هكذا الشكل الأكثر شيوعا للانتحار في المجتمعات الحديثة. فالاختلالات الاجتماعية تحدث عندما يصادف المجتمع تحولات عميقة: يجد الأفراد هكذا أنفسهم في وضعية فريدة بما أن معالمهم المعتادة ليست عملية(إجرائية)، وهو ما يدل على أن رغباهم ليست محدودة اجتماعيا (بل هي لا محدودة) في حين أن الأهداف المتاحة، عادة ما تكون محددة بوضوح، تصبح غير محددة. لاحظ دوركايم، للوهلة الأولى، أمرا يبدو مدهشا: أن الانتحارات ترتفع أثناء مراحل التحولات الاقتصادية سواء عند فترات الأزمة أو في فترة النمو القوي. في الواقع، ضمن هذه الوضعيات من التغير الاجتماعي السريع، التأثير المُنظّم للمجتمع، الذي عادة ما يكيّف رغبات الأفراد، يتراخى في الوقت الذي تميل فيه الطموحات نحو الزيادة فجأة من دون أن تكون بالضرورة مشبعة.

" ولأن الازدهار قد اتسع وزاد، والرغبات تعاظمت والغنيمة الثرية جدا المتاحة لهم، فقد جعلتهم هذه الأمور أكثر مطالبة كما نفذ صبرهم بكل قاعدة، بينما بالضبط فقدت القواعد التقليدية سلطتها."

اعتبر دوركايم في النهاية بأن الانتحار غير المنتظم (الشاذ) بشكل خاص مصدر قلق في المجتمعات الحديثة لأنه مرتبط ارتباطا وثيقا بنقص التأثير الذي لم يعد من الآن فصاعدا يمارس من طرف المجتمع على الفرد. فقد لاحظ، بهذا

الصدد، أن الوظائف الصناعية والتجارية، التي كانت محل تنظيم ضعيف، هي الأكثر تأثرا بالانتحار.

بهذا أثبت دوركايم ببراعة في دراسته، خلافا "للحس العام" والذي يرى أن الانتحار لا يمكن أن ينجم سوى عن قرار فردي، بيّن دوركايم بأن المنطق الاجتماعي يمكنه أن يأخذ بالحسبان التغيرات في معدلات الانتحار لسكان معينين.[1]

◀ إذا سلمنا، تبعا، لدوركايم، أن الانتحار يشكل واقعة اجتماعية، عندئذ يمكن أن نتساءل إلى أي حد يجب على السوسيولوجي أن يتابع تحقيقه حتى "يلاحق" حضور الاجتماعي في مختلف السلوكات الإنسانية. فالاجتماعي لا يعرف، في الواقع، أبدا الحدود بما أنه يتجلى عن طريق مجموع أفعال الفرد في المجتمع، حتى عبر تلك التي تبدو قبليا "حميمية" و"شخصية".

قد تمكن السوسيولوجيون من إظهار أن "اختيار الشريك"، وبعيدا عن كونه ناتج "للصدفة" وحدها، يخضع لانتظامات اجتماعية لأنه، فعلا، ومهما اعتقد في ذلك غالبا المعنيون، "حينما تسقط الصاعقة، فإنها لا تسقط في أي مكان"[2] تجانس الزواج L'homogamie بمعنى اختيار الشريك ضمن الوسط الاجتماعي، يشكل إذن اتجاها مؤكدا داخل المجتمع الفرنسي لأنه، على سبيل المثال، ما يقارب 8 مزارعين من 10 يتزوجون مزارعة في حين أقل من 2 % من الإطارات يتقاسمون وجودهم مع عاملة. إن الزواج الأكثر شيوعا في فرنسا هو زواج عامل مع موظفة (إنه يخص ما يقرب من 60 % من العمال، الآخرون يتزوجون في كعظمهم عاملات، أقل عددا في السكان النشيطين من العمال).

كيف يمكن تفسير انتظام هذه الواقعة الاجتماعية، الذي سبق ملاحظته في نهاية سنوات 1950 من قبل السوسيولوجي الفرنسي آلان جيرار Alain Girard،

---

(1) Pour une actualisation des thèses de Durkheim, Christian Baudelot, Roger Establet, *Suicide. L'envers de notre monde*, Paris, Seuil, 2006.

(2) M. Bozon, F. Héran, *La Découverte du conjoint*, Paris, La Découverte, 2006.

في الوقت الذي عوض تدريجيا شعور المحبة التأثير العائلي وحيث لم يعد الضغط على الزوجين يمارس فصاعدا إلا بشكل غير مباشر؟ العنصر الأول: للزواج بشخص ما، ينبغي أولا الالتقاء به! وهكذا من الممكن إقامة علاقات بين أماكن لقاء الزوجين وخصائصهم الاجتماعية. فعناصر الأوساط الشعبية يتعارفون معظمهم في فضاءات عمومية (حفلات، مراقص، شارع، مقهى، مركز تجاري)، إطارت القطاع الخاص، في الفضاءات الخاصة (حفلة للعائلة أو بين الأصدقاء) بينما الفئات الحاصلة على شهادات عليا تلتقي في الأغلب في فضاءات مخصصة (جامعة، جمعية، نادي رياضي). تختلف فضاءات المؤانسة (الألفة) تبعا للوسط الاجتماعي لكن لا يمكنها، وحدها [أي الأماكن]، تفسير تجانس الزواج. فالصفات المطلوبة لدى الشريك تبدو، فعلا، متغيرة بحسب الموقع المشغول في الفضاء الاجتماعي ومن ثمة تقدم توضيحا عن تنوع مبادئ حكم الحب. إن زوجات الإطارات العليا، اللائي شملهن استطلاع عن تطلعاهن، ذكرت الجانب "الآمن" و"ذكاء" أزواجهم بينما قدرت زوجات العمال بشكل خاص "الجدية" وتفضل أن يكون أزواجهن "عمالا". إن الأحكام الاجتماعية المتعلقة بالشريك ليست منفصلة عن مجموع أحكام "الذوق"، وعلى هذا النحو، تشهد أو تخبر عن الهوية الاجتماعية للشخص الذي يعلن عنها. وعلى طريقة السيدة دو كيسني Mme de Quesnay عند استحضارها لزواج بناهّا، فهي ليست على وعي تام بهذا: "جميعهن، بلعبة الحظ، الحظ الكامل. الكبرى تزوجت من عائلة دا رسونفال d’Arsonval، وهي أسرة نعرفها منذ زمان، دعيت إلى رحلة صيد، لكنها لم تملك وسيلة نقل للذهاب. وببساطة هناك من أرشدها "ما عليك إلا الاتصال هاتفيا بـ هيبر دارسونفال "Hubert d’Arsonval" وهكذا!"[1].

---

(1) Cité par M. Pinçon et M. Pinçon-Charlot, *Dans les beaux quartiers*, Paris, Seuil, 1989.

ج – السوسيولوجيا والموضوعية

1- ينبغي على السوسيولوجي أن يحاول تجنب أحكام القيمة التي تهدد على الدوام اقتحام (التسلل) تحليله

لقد أكد عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر Max Weber على هذه النقطة بتمييزه بين حكم القيمة والارتباط بالقيم: يتضمن حكم القيمة عرض قبلياته وتقويم أفعال الغير انطلاقا مبادئه الخاصة وهو ما يجب أن يلغى في السوسيولوجيا في حين أن الارتباط القيم يمكن، على العكس، توجيه عالم الاجتماع في مسعاه. يعود الأمر إلى انتقاء بعض جوانب الظاهرة استنادا لتساؤلات أولية للسوسيولوجي: هذا الأخير يقسم، فعلا، الواقع الاجتماعي الذي اختار دراسته وفقا لمراكز اهتمامه الخاصة.

بالنسبة إلى فيبر، يجب على السوسيولوجي أن يبذل قصارى جهده لفهم الدلالة التي يعطيها الفرد لفعله. ولهذا السبب فإن المسعى الذي ينادي به يسمى مفهومي: فهو يهدف لفهم الدوافع التي تدفع الفرد إلى تبنّي نوع من السلوك. بهذا ميّز فيبر أربعة أشكال من الأفعال الاجتماعية، بمعنى مختلف نماذج الفعل الممكنة للفرد.

الفعل التقليدي يستند على تقاليد وعادات مكتسبة، ويميز مجموع النشاطات المألوفة لدى الفرد: طاعة الأب فعل تقليدي.

الفعل الوجداني موجه بواسطة الدوافع مثل المحبة أو الكراهية المعبر عنها اتجاه الغير.

الفعل العقلاني في القيمة هدفه الامتثال إلى قناعات دون إعطاء أهمية إلى نتائجها العملية: فالجندي الذي، ينتحر بعد الهزيمة يقدم توضيحا لهذا.

الفعل العقلاني في الغائية يتضمن تقييم الوسائل التي نمتلكها لأجل بلوغ هدف محدد سلفا: فالمهندس الذي يبني جسرا يتصرف بهذه الكيفية.

لا تهدف هذه الأصناف من الفعل إلى فهرست على وجه التحديد مدى الأنشطة الاجتماعية لأن فيبر يوضح بأن الأغلبية منها تتعلق، عمليا، بأشكال مختلطة. إنها تنبع من منهج **النموذج– المثالي l'idéal-type** حسب التعريف الذي

يعطيه فيبر، بمعنى "لوحة أو جدول تفكير" «tableau de pensée» أو نموذج مجرد معد انطلاقا من بعض الخصائص الكامنة وراء ظاهرة: يقدر السوسيولوجي إذن الفارق الموجود بين "الواقع" الذي يلاحظه واللوحة المتخيلة التي كونها. هذه المقاربة ليست مستبعدة في تحليل الاقتصادي (وهو ما لا يثير الاستغراب لأن ماكس فيبر كان اقتصادي قبل أن يتحول صوب السوسيولوجيا) الذي يجابه نموذج السوق المنافسة المحضة والتامة لمختلف أنماط الأسواق الموجودة. يتيح إذن المثال - النموذج لـ فيبر لتعاطي محاولة لسوسيولوجيا المقارنة عن طريق اختبار تعريفه للمثال- النموذجي للمدينة، للبيروقراطية، للرأسمالية... للوضعيات الملاحظة في مختلف المجتمعات وعلى مراحل مختلفة.

2- إذا لم يكن بمقدور عالم الاجتماع أن يبدي "موضوعية كاملة" والتي تظل وهمية، مع ذلك يجب عليه أن يجتهد في تحليل دقيق لصلته بالموضوع.

كان ماكس فيبر يدعو إلى **حياد اكسيولوجي**، بمعنى الفصل التام بين الأحكام الأخلاقية الخاصة بالباحث وتحليله العلمي. مع ذلك فهذا القصد المنشود غالبا من الصعب تنفيذه: فلا يكفي أن يدعي السوسيولوجي التصرف بالاستناد إلى "أخلاقه" العلمية حتى تزول المشكلة. السوسيولوجي "لا يحلق في الهواء"، وهو غير منفصل عن كل رهان عملي لأنه يحتل بالضرورة موقعا نوعيا في الفضاء الاجتماعي، وهو منحدر من وسط اجتماعي، يمتلك "أذواق" و"دوافع" خاصة... هذا الفاعل الاجتماعي تكمن "مهمته" الفريدة في فهم ما يقوم به الفاعلون الاجتماعيون وتحليله. لن يكون عليه بالتالي الرجوع إلى "علمه" واعتماد موقف "عبء"، محبب للمحلل الذي يفصح "بكل موضوعية"، أي باسم العلم، حتى يتم الحسم في جدالات والتي لا تكون فيها الرهانات على الدوام مرتبطة بالأسئلة ذات الطابع العلمي ("ما هي أولويات الفرنسيين؟"، حتى نكتفي عند هذا المثل).

يستفيد السوسيولوجي في توضيح المسافة أو الجوار - عوائق يمكنها أيضا أن تجتمع معا - الذي يكون له مع موضوع دراسته. بعبارة أخرى، يجب عليه التخلي عن التظاهر بالاعتقاد أن "عناوينه" تشكّل جواز سفر كاف لفهم

على الفور وضعية اجتماعية. حسب صيغة السوسيولوجي الفرنسي بيار بورديــو Pierre Bourdieu (2002 - 1930)، من مصلحة عالم الاجتماع أن يموضع التوضيع l'objectivation objectiver، أي أخذ العالَم الاجتماعي كموضوع (كما نادى به دوركايم)، لكن أيضا أن يدرج ضمن التحليل الاجتماعي. إذا ما بدت نظــرة محايدة حول الموضوع، فعلا، مستحيلة، فإن تحليلا اجتماعيــا يتــيح الأخــذ في الحسبان "النظرة" الخاصة التي يحملها عالم الاجتماع عن موضوعه وتحثــه علــى مضاعفة يقظته إزاء الأفكار المسبقة التي لا تزال تهدد بالتدخل في التحليل.

- 2 -

السوسيولوجيا ومناهجها

ما المنهج الجيد؟

نوعان من المنهج يستخدمان في علم الاجتماع: المناهج المسماة كمية والمناهج المسماة كيفية. الأولى تلجأ عادة إلى الإحصائيات وتهدف استنباط تفسيرات انطلاقا من مجموع المعطيات القابلة للقياس والقابلة للمقارنة فيما بينها. الثانية تدرج تقنيات جديدة مثل التحقيق الميداني، الشهادات، قصة حياة، وترتبط أكثر بدراسة حالات خاصة منها بجمع وتحليل أكبر عدد من المعطيات. هذين المنهجين، في الغالب يقدمان على أنهما خصمان (وأحيانا تطالب بهما مدارس "غير قابلة للاختزال")، يتكاملان معظم الوقت في النشاط اليومي للسوسيولوجي ويتيحان له بالتالي إلقاء نظرة على الأبعاد المختلفة لموضوعه.

أ - المناهج الكمية

1- استعمال الإحصائيات، كما بينه إميل دوركايم، يشكّل أداة قيّمة للسوسيولوجي

يمكن للسوسيولوجي أن يقطع بسهولة مع الأفكار المسبقة إذا ما أنتج معطيات موضوعية.

◄ **يؤكد دوركايم، في *الانتحار*، على أهمية التحليل الإحصائي في الإدلاء بالبرهان.** إنه يستخدم منهج المتغيرات المتوافقة (نستخدم اليوم أكثر مصطلح التلازم) لأجل استنباط الارتباطات الموجودة بين متغيرين (على سبيل المثال، نسبة الانتحار والحالة المدنية للشخص) ووضع علاقة سببية بين الظاهرتين. هكذا فإن

دوركايم بحساب معاملات المحافظة، بمعنى أنه يقارن منهجيا نسبتين من الانتحار فيما بينهما (نسبة الانتحار العزاب ونسبة انتحار الأزواج، مثلا). أمكنه، إذن أن ينتهي إلى أن الزواج يقي من الانتحار لأن الأسرة تسعى بقوة إلى إدماج الفرد في المجتمع (معدل الانتحار أعلى بكثير لدى العزاب أو الأرامل منها لدى الأزواج).

مع هذا لا يمكن للجوء للإحصائيات أن يتم ميكانيكيا دون التساؤل المسبق حول الكيفية التي جُمعت بها المعطيات المحللة ذلك أن حياد التقنيات (سواء تعلق الأمر بالمنهج الكمي أو الكيفي) يثبت أنه وهم.

◄ باستعادتها لنفس موضوع دراسة دوركايم، اهتمت دومينيك ميرلييه **Dominique Merllié**[1] بأكثر تحديد بالكيفية التي تصنف بها بعض الوفيات عند نهاية جملة من العمليات المعقدة على أنها انتحارات.

يعاين السوسيولوجي هكذا أن نسبة الانتحار المسجلة لا يمكن أن تقبل دون مناقشة بما أنه، من خلال توفر المعطيات، يتعلق الأمر، بالفعل، بملاحظة الممارسات الاجتماعية المختلفة.

حتى تصنف وفاة على أنها "انتحار"، يجب أن يتفق، الأطباء ورجال الأمن، وفقا للمعايير الخاصة بممارساتهم المهنية، مسبقا حول تعريف الفعل المرتكب: يتشبث الطبيب قبل كل شيء بالبعد المرضي الذي يسمح بـ "تفسير" الفعل بينما الشرطي يستند إلى المقولات القانونية والخاصة بمشكلة المسؤولية.

عملية التصنيف هذه ليست أبدا بديهية، ومن الناحية العملية، تستعمل مؤشرات مختلفة بغية إيجاد حل. إن سن الميت هو أيضا معيار حاسم: فوفاة شخص كبير في السن إثر تناول أدوية سيعزى بشكل كبير إلى إهمال (وسيصنف بين الوفيات الطبيعية) في حين من المحتمل أن نفس الفعل المرتكب من طرف مراهق سيعتبر قصدي (عمدي) (عندئذ سيتعلق الأمر بانتحار). بتعبير آخر، فإن نسب الانتحار، بعيدا عن كونها ظاهرة موضوعية يتوقف الإحصائي عند معاينتها،

(1) D. Merllié, «Suicides: modes d'enregistrement», in J.-L. Besson, *La Cité des chiffres*, Paris, Autrement, 1992.

هي مماثلة لعملية تصنيف "عادية" والتي، علاوة على ذلك، لا تخلو من عدد معـــين من الرهانات الاجتماعية: يكون الانتحار موضوع تخوف معين، بل لاشمئـــزاز في المجتمع ولبعض الفئات الاجتماعية، يستطيع أن يشكل رهانا هاما عندما يـــرجح، مثلا، أن يضر بـــ"سمعة" عائلة. وهكذا، عند حالة وفاة معاينة عن طريق طبيـــب العائلة، فإن مجرد "ضغط ودي" يكفي لإعادة تصنيف الوفاة على أنها موت طبيعي - زد على ذلك فهذه الظاهرة هي كذلك أعلى بكـــثير في القـــرن الماضـــي، أي بالتحديد في الوقت الذي كان فيه دوركايم يقوم بدراسته، بما أن التطبيب كـــان أقل تقدما مما هو عليه اليوم، فالوفيات كانت محل معاينة في البيوت غالبا وليس في مؤسسة استشفائية.

◀ لكنه يوضح الأمر الآتي: المعطيات ليست "طبيعية" ولا يكفي بـــامتلاك جهاز متطور (تعميم الحوسبة المعلوماتية في القرن العشـــرين سمـــح بالتوســـع في استخدام المناهج الإحصائية وهو ما مكن من صقل بشكل كبير الحسابات، الـــتي كانت ابتدائية في فترة دوركايم) حتى تزول مســـائل المنـــهج. يجـــب إذن علـــى السوسيولوجي أن يتجنب فخ الأداة الذي يمكن أن يعرف مثل ظاهرة اصـــطناعية ناتجة عن المحلل بسبب مراقبة غير كافية للتقنيات المســـتعملة. يمكننـــا إذن اليـــوم ملاحظة، خلافا لما عاينه دوركايم في القرن الماضي، أن نسبة الانتحار أكثر ارتفاعا في المنطقة الريفية منها في المدينة. فهل يستطيع السوسيولوجي أن يخلص إلى تعديل السلوكات الاجتماعية؟ لا شيء أكيد. في الواقع، إن الاختلافات المسجلة بواسطة الإحصائيات تترجم - في جزء كبير منها - سلوكات متباينة بين رجال الـــدرك (الذين يعاينون الانتحار في الأرياف) ورجال الشرطة (المكلفين بالمناطق الحضرية): الأوائل عادة ما يبلغون (ينقلون) بانتظام أكبر من الآخرين المعلومـــات المتعلقـــة بالانتحارات إلى معهد (INSERM)(*)، الهيئة الإحصائية المختصة، وهو ما تكون

(*) **INSERM** هو المعهد الوطني للصحة والبحث الطبـــي **L'Institut national de la santé et de la recherche médicale** وهو مؤسسة عمومية فرنسية ذات طابع علمي وتكنولوجي تابعة في الآن نفسه لوزارتي البحث والصحة. [المترجم]

نتيجته سوء تقدير محتمل للانتحارات الحضرية.

- لهذا السبب، فإن مضاعفة المعطيات الإحصائية المجمعة بدءا من المعايير المركبة مثل السن، الدخل، الجنس، مقر السكن... لا تشكل ضمانا كافيا ومن المرجح أن تؤدي إلى استقالة السوسيولوجي إذا ما اختار اللجوء بحذر خلف الحياد الظاهر للمعلومات التي تم جمعها. هكذا يملك معيار السن، للوهلة الأولى، الخصائص المثالية لأن يستعار في لعبة الإحصائيات: فهو قابل للمراقبة بسهولة، يتيح تقسيم السكان (إلى فئات عمرية) بغرض قياس متغيرات السلوكات (قياس الفوارق في الممارسات الرياضية، الثقافية... حسب عمر مختلف الشرائح). مع هذا يتضح أن السن، في عدة حالات، "معطى" مبني سلفا، بمعنى أن التعريفات الاجتماعية للأعمار (ما "الشاب" وما "الشيخ"؟)[1] تمثل في الغالب فيما بينها رهانات اجتماعية: فتحديد أعمار الحياة ضمن حدود مرسومة يشكل مهمة شاقة، خصوصا لما يتعلق الأمر بتصور الأعمار "القصوى". هذه الصعوبة الإحصائية تحيل مباشرة إلى سؤال ذو طابع سوسيولوجي، أي عدم التحديد السوسيولوجي (النسبي) للأفراد قيد السؤال: فهل يدخل "الشاب" المتربص ضمن نفس فئة "الشاب" العاطل عن العمل؟ سيكون من الصعوبة تحديد السؤال عندما يمكن لفرد واحد أن ينتقل تدريجيا من فئة إلى أخرى أثناء مساره الاجتماعي، بحيث أن الفئات الإحصائية يجوز، في بعض الحالات، أن تتشابه إلى تحف نقية وبسيطة. إضافة إلى هذا، فإن فئة إحصائية تميل إلى مجانسة السكان (من هم أكثر من 60 سنة، على سبيل المثال) في حين أن السن لا يمكنه أن يشكل المحدد الاجتماعي الوحيد والرئيسي للشخص، كما أن التحولات الحاصلة، على مر

(1) Pour deux exemples: R. Lenoir, «L'invention du "troisième âge"», et L. Thévenot,«Une jeunesse difficile. Les fonctions sociales du flou et de la rigueur dans les classements», *Actes de la recherche en sciences sociales*, no 26/27, 1979. Voir aussi, Olivier Galland, *Sociologie de la jeunesse*, Paris, Armand Colin, 2006 et Vincent Caradec, *Sociologie de la vieillesse et du vieillissement*, Paris, Armand Colin, 2012.

الزمن، ليست أبدا مقروءة مباشرة عن طريق الإحصائيات ويمكن أن تدفع إلى الظن بانتظامات متخيلة (من هم أكثر من 60 سنة في 2013 يختلفون في عدة نواحي عن نظرائهم لسنوات 1960 وهم ليسوا مباشرة مماثلين لهم).

2- كيف نصنف المماثلين له؟

يستعمل كل من السوسيولوجي، الاقتصادي، الإحصائي في عملهم اليومي مدونات نومنكلاتورات[*] nomenclatures، **أي قائمة من المقولات توجه المعطيات** الإحصائية حتى يمكن القيام بمقارنات مع مرور الوقت. إن مدوّنة المهن والفئات السوسيومهنية المعتمدة في 1982 عن طريق INSEE تشكّل الأداة الرئيسية لتحليل السكان الفرنسيين النشطين، موزعة على مختلف التجمعات بكيفية تقريبا متجانسة. في بداية سنوات 1980، ثم في 2003، تمّ تنقيح المدونة المؤرخة في 1954 بشكل عميق، بسبب حجم الاضطرابات الحاصلة في المجتمع الفرنسي خلال ثلاثين سنة.

◄ **تبرز الصعوبة الأولى في إقامة مدوّنة (نومنكلاتورا) لأنه ينبغي احترام هدفين في وقت واحد – وهما في كثير من الأحيان متناقضين –**: تكوين مقولات "قوية" بما فيه الكفاية حتى تسمح بإجراء مقارنات، خصوصا الدولية وكذا تبنّي تطورات البنية الاجتماعية بغرض إنتاج تجمعات مزودة بدرجة عالية من الواقعية. كيف يمكن إذن القيام بتقسيم مناسب للواقع الاجتماعي؟ من العناصر الأولى التي يجب أخذها في الحسبان في العلوم الاجتماعية التأثير المحتمل الذي يمكن أن تمارسه

(*) **نومنكلاتورا nomenclature أو مدونة**، أصل الكلمة لاتيني ويعني العبد الذي يعلن عن أطباق الطعام في حفل ما وعن أسماء المدعوين لدى حضورهم. المدونة هي جملة المصطلحات والمفاهيم الفنية الخاصة بعلم أو فن أو مجال دراسي ما. ويشير المصطلح إلى هيئة تصنيف (رموز، لوحات، قوائم، قواعد إسناد الهوية...) معتمدة وتستخدم في إطار فرع معين (مثلا، الكيمياء، علم الحياة، علم النفس، الفلك،...إلخ). ومن هذه الزاوية المدونة (النومنكلاتورا) ضرورية لكل تصنيف وهو ما حث عليه العالم الطبيعي بوفون Buffon وفرض استعماله في إطار علم ما (الأنواع الطبيعية مثلا في علوم الحياة) أو تقنية ما حيث يتوجب أن تسمى جميع الأشياء وتحدد فلا تبقى عرضة للغموض. [المترجم]

عملية تصنيف – أغلب الوقت، لا إراديا – على الأفراد المدروسين: على السوسيولوجا أن تأخذ بعين الاعتبار، أيضا بأكثر من علوم الطبيعة، الكيفية التي تدرك بها "الواقع" من قبل الفاعلين الاجتماعيين وكذا الرهانات الاجتماعية – الحقيقية – التي تثيرها تحقيقاته.

إن تصنيف الفراشات يطرح مشكلات أقل بكثير من تصنيف الكائنات البشرية لأنه من النادر وبكل بساطة (!) أن تكون للكائنات الأولى رأيها (كلمتها) في التصنيف المنجز عن طريق الباحث، علاوة على ذلك، لا تؤثر مطلقا في سلوكهم. بالإمكان التسليم، عل العكس من ذلك، أن التصريح بالمهنة يشكل في الغالب "امتحانا" لأن المعلومة الصادرة تنطوي على الوضع الاجتماعي للشخص الذي يجتهد هكذا في حشد كل المصادر التي يتوفر عليها: "هكذا يمكن لشخص يعمل في البناء أن يقول: "أعمل لدى بويغ(*) Bouygues"، "أعمل كمدير للتسويق في البناء"، "أعمل لدى فرانسيس (أو مارتين) بويغ"، "أشتغل مع فرانسيس (أو مارتين) بويغ"[1]."

بتعبير آخر، بما أن لكل واحد فكرة نوعا ما مضبوطة عن المكانة التي يحتلها في المجتمع، فإن الباحثين المكلفين بإعداد جدول جديد لـ المهن والفئات السوسيومهنية **professions et catégories socioprofessionnelles (PCS)** اعتبروا بأنه من المناسب اتخاذ التمثلات الاجتماعية للأفراد نقطة الانطلاق، أي طريقتهم في "الحكم"، في الحياة الجارية، على نظرائهم[2]. هكذا فكل فرد يفضي يوميا انطلاقا من عدد معين من المؤشرات مثل اللباس، طريقة الحركة، اللغة، حتى مقر السكن، الوظيفة، المستوى الدراسي... وفي أجل محدد، إلى التعرف على معاصريه. فالتمثلات الاجتماعية تكتسي أهمية قصوى لما يتعلق الأمر بـ "بناء"

(*) Bouygues بويغ مجمع صناعي فرنسي ضخم متنوع (خاصة في البناء والاتصالات) أسسه فرانسيس بويغ سنة 1946 ويديره ابنه مارتن بويغ. منذ نهاية 2013 يتواجد المجمع في أكثر من 80 بلدا ويشغل نحو 128 ألف عامل. [المترجم]

(1) F. Kramarz, «Déclarer sa profession», *Revue française de sociologie*, vol. 32, n° 1, 1991.

(2) A. Desrosières, L. Thévenot, *Les Catégories socioprofessionnelles*, Paris, La Découverte, 1992.

فئات اجتماعية لأجل غايات تحليلية لأن لبعض منها مسبقا "قوام" قبل أن يتدخل السوسيولوجي: فالمتأصل من سكان المدينة يمتلك، بالفعل، صورة، بل حتى صورة نمطية (نموذج) للمزارع حتى وإن كانت زوجته ممرضة، فمن المرجح أن يبقى صامتا عندما نثير أمامه "المهن الوسيطة".

◄ **فهل يتوجب علينا البقاء على تلك النظرة "العادية" التي يحملها الأفراد عن نظرائهم؟** بالتأكيد لا عندما نزعم انكباب تحليل سوسيولوجي. كيف نبني إذن مقولات في الوقت ذاته صارمة علميا ويمكن للأفراد أن يتعرفوا على أنفسهم ضمنها؟

إن مدونة المعهد الوطني للإحصائيات والدراسات الاقتصادية(*) INSEE للسكان العاملين والفئات السوسيومهنية توضّح صعوبة هذه المهمة. حتى تحوز الفئات المتبقية درجة كافية من الواقعية، فإن عددا معينا من الأبعاد التاريخية الذي يأخذ في الحسبان خصوصيات السكان الفرنسيين العاملين يجب أن تدمج.

إن معنى "المهنة" يمثل بهذا إرثا **للنظام القديم**(**) Ancien Régime (في

(*) Insee هو هيئة مكلفة بإنتاج، تحليل ونشر إحصائيات رسمية في فرنسا: محاسبة وطنية سنوية وسداسية، تقييم الديمغرافيا الوطنية، معدلات البطالة، إلخ. ويشكل مديرية عامة لوزارة الاقتصاد، المالية والصناعة، يتمتع باستقلالية حقيقية إزاء الحكومة وهي مكفولة قانونا. [المترجم]

(**) **النظام القديم** Ancien Régime كتبناه بالحرف المغلظ وهو أيضا في النص الفرنسي يكتب بحرف استهلالي أو تاجي lettre capitale ليميّز عن معنى أي نظام إنما يراد به فترة من تاريخ فرنسا تشير للقرنين السابقين على الثورة الفرنسية ذلك أن معظم المؤرخين والكتّاب القرن 19 يبدؤون هذه الفترة بحكم آل بوربون مع تولي هنري الرابع العرش في 1589. وإذا كانت لفظة قديم تشير إلى الملكية المطلقة التي سبقت الثورة، فإن هذه الأخيرة أي الثورة الفرنسية (1789) والتي صارت مرجعية النظام السياسي توحي بالنسبة إلى المؤرخين الفرنسيين إلى فترة الأزمنة الحديثة التي غالبا ما ينطلقون فيها من زمن قبل الثورة وبالتحديد في عودهم إلى سقوط القسطنطينية واكتشاف كريستوف كولومب لأمريكا وهما بطبيعة الحال حدثان سيغيران مجرى العالم في جميع النواحي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا لا سيما مع تزايد وتيرة أمرين آخرين هما الاكتشافات الجغرافية والاكتشافات العلمية. [المترجم]

الفترة التي كانت فيها المهن موزعة حسب هيئات حرفية) وتترجم رؤية للمجتمع في انسجام مع تفوق الحرف والتجارة، بل حتى الزراعة، متطابقة في هذا مع المجتمع الفرنسي للنصف الأول من القرن التاسع عشر.

جدول 1

السكان العاملون حسب الجنس والفئة السوسيومهنية في 2011

	النساء	الرجال	المجموع
مزارعون مستثمرون	1.2	2.8	2.0
حرفيون، تجار، رؤساء المؤسسات	3.8	8.9	6.5
إطارات ووظائف فكرية سامية	14.5	20.3	17.6
وظائف وسيطة	26.1	22.9	24.4
موظفون	45.6	12.7	28.3
عمال	8.7	32.3	21.1
منهم:			
عمال مؤهلين	3.4	23.2	13.8
عمال غير مؤهلين	5.3	9.1	7.3
المجموع	**100,0**	**100,0**	**100.0**
العدد الإجمالي (بالآلاف)	**12 240**	**13 538**	**25778**

قراءة: معدل في 2011، 32، 3% من الرجال الموظفين هم عمال.

ولم يعرف تصنيف المهن تصنيفا منافسا إلا مع نمو المؤسسات الكبيرة: (الذي حدث في فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر) وفيه حدث تمييز بين أرباب العمل والأجراء.

ابتداء من سنوات 1930، ومع اتساع العمل المأجور، فقد انقسمت هذه الفئة الأخيرة (أصبحت أكثر تنافرا) وظهرت تراتبية الأجراء تبعا لمستوى التأهيل.

إن مدوّنة السكان والفئات السوسيومهنية لسنة 1982 أدرجت، بطريقتها، اللحظات التاريخية السابقة الضرورية لفهم الاستمراريات وشروط تطور البنية الاجتماعية لفرنسا. لا يمكن إهمال التقاليد التاريخية المرتبطة بالتحولات الاجتماعية لكل بلد ولهذا السبب فإن المقارنات الدولية - مع كونها أساسية - تبدو صعبة

للغاية، لأنه، من بلد لآخر، فإن أنواع المنطق logiques[*] التي تحكم التجمعات تختلف: ففئة "إطارات" التي قد تبدو في فرنسا "عادية" ليس لها ما يعادلها في الخارج، وحتى نأخذ مثال وحيد خارج حدودنا، فالفئة الإنغليزية *المهنية* *professional* لا تغطي نفس نمط السكان لأنها أنشأت من دون اتصال مباشر مع عالم المؤسسة: ففي الأصل جمعت أعضاء الإكليروس الإنغليكاني، الأطباء ورجال القانون.

إقامة أو إعداد معادلات بين أشخاص بغية "إدراجهم" ضمن فئات موجودة سلفا تبدو إذن عملية معقدة تدمج ضرورة عدة أبعاد، مثلما تشهد على ذلك مدوّنة (نومنكلاتورا) السكان والفئات السوسيومهنية لسنة 1982: أجراء/مستقلين؛ وظيف عمومي/قطاع خاص؛ قطاع النشاط؛ حجم المؤسسة؛ مستوى التأهيل؛ الموقع التراتبي (المقع في السلم الهرمي)...

إن الفئات الستة للنشطاء المحتفظ بها من طرف معهد INSEE[1] لا ينبغي إذن تصورها مثل مجموعات متجانسة (هل يمكن الخلط بين مهندس معماري، قاضي، فنان منوعات ومهندس مع أنهم منضوين في فئة الإطارات والمهن الفكرية السامية؟) إنما على الأكثر كمحاولة لتوضيع سوسيولوجي للواقع الاجتماعي، أي مثل أداة تهدف إلى إقامة تمثل للفضاء الاجتماعي سواء تعلق الأمر باختبار تمثلات اجتماعية أو بتحولات فعلية للمجتمع.

(*) لفظة المنطق في النص الفرنسي بالجمع لا مقابل لها باللغة العربية وهي كغيرها من اللفظات الكثيرة التي يصادفها المترجم ويجد صعوبة في الالتزام بنقلها كما ترد في صيغتها إما المفرد أو الجمع أو المثنى وقد لا يعثر على مقابل لها في لغة الترجمة إما النص الأول أي المنقول منه أو النص الثاني أي المنقول ولذا عليه أن يجتهد دون أن يخل بمضمون الفكرة والفقرة والنص ككل. وهذا ما وقفنا عليه في مثال المنطق بحيث لا يوجد في العربية ما يقابل جمع المنطق باللغة الفرنسية logiques لذا ارتأينا ترجمته بأنواع المنطق مع ما في هذا الاختيار من مخاطرة تبديد وتمويه المعنى فلا يكون أنواع للمنطق كما قد يتبادر إلى الذهن بقدر ما أننا نود الإشارة إلى تعدد المنطق. [المترجم]

(1) 1/Agriculteurs exploitants; 2/Artisans, commerçants, chefs d'entreprise; 3/Cadres, professions intellectuelles supérieures; 4/Professions intermédiaires; 5/Employés; 6/Ouvriers.

3- **يتساءل السوسيولوجي كذلك، وهو حذر في استعمال الإحصائيات، حول استخدام سبر الآراء.**

يتماثل اليوم بشكل واسع مع سبر الآراء (انظر الجزء الثاني، الفصل 6)، فإن السبر قبل كل شيء تقنية تحقيق تتضمن إدارة استبيان على عينة أفراد ممثلة لشريحة أوسع من السكان، تسمى الساكنة الأم.

◄ **هذه الطريقة، عندما تكون مراقبة بما فيه الكفاية، تمثل أهمية جمع المعلومات الدقيقة حول فئة واسعة من السكان في حين أننا لا نسأل إلا جزء مخفض من هؤلاء.** يتيح سبر الرأي، مثلا، معرفة أية فئة من السكان (وفقا للسن، الدخل، المهنة والفئة السوسيو- مهنية، مقر الإقامة، الجنس...) تمارس في معظم الأحيان آلة موسيقية، الملاكمة أو الغولف...، وتقيس الفوارق بين مختلف الفئات. إن تحقيقا بواسطة استبيان يمكنه أيضا أن يتضمن عيّنة من الأشخاص ويمكن تجديدها في أوقات مختلفة: نتحدث إذن عن لوحة، وهي تقنية معممة من قبل السوسيولوجي الأمريكي بول لازارفيلد (1925 - 1976) Paul Lazarsfeld ومستعملة بشكل خاص لقياس التغيرات سلوك المستهلكين (دراسات السوق)، مثل المنتخبين (دراسة تأثير الحملة الانتخابية ونتائجها على الاقتراع).

◄ **إن تقنية سبر الآراء مع ذلك تتطلب مهارة خاصة لأن تهديدات الأخطاء تظل قامة ومن المحتمل أن تتدخل في كل مرحلة من التحقيق.**

- المرحلة الأولى تتضمن **تشكيل عينة** (سكان بحجم مخفض ممثل للسكان الأم). إذن هناك منهجين ممكنين: المنهج العشوائي والمنهج المسمى الحصص. في الحالة الأولى، العينة تتأسس عبر قرعة لعدد الأفراد انطلاقا من قائمة، كتلك المقترحة، مثلا، عن طريق السجل الهاتفي. يجب إذن تحاشي **الانحرافات (المواربات)les biais**، أي الأخطاء التي تعزى إلى مسلك التحقيق ذاته. على سبيل المثال، جزء لا يمكن إهماله من السكان لا يوجد في السجل (الأشخاص الذين لا يملكون هاتفا أو الذين هم على "القائمة

الحمراء"). إذا لم يراع هذا النوع من المشاكل، فإن جزءا من السكان سيجد نفسه، فعليا، مقصى من الحقيق، والذي لن يكون إذن ممثلا لمجموع السكان الأم. منهج الحصص، من جانبه، يستوجب معرفة بالخصائص الدقيقة للسكان الأم (النسبة المئوية للنساء، الأقل من 18- 25 سنة، الريفيين...) حتى يعاد تشكيلها بأمانة ضمن العينة.

- المرحلة التالية: **إعداد الاستبيان** والذي ينبغي أن يكون محل اختبارات أولية قبل اقتراحه لأجل التحقق من مقروئيته (إن لم تكن الأسئلة جد معقدة؟ هل تتضمن دلالات متقاربة أو متباعدة بالنسبة للفئات المختلفة للسكان؟). في حالة سبر الآراء، تسمى الأسئلة مغلقة: على الشخص المستجوب اختيار عنصر من قائمة، بمعنى إجابة مشفرة مسبقا من قبل المحلل ("هل تذهب بانتظام كبير، بانتظام أقل، نادرا، أو أبدا إلى رياضات الشتاء؟"). إن خطر الأداة حاضر هنا لما يجمع المحقق أجوبة لا تتطابق مع ممارسات فعلية للأفراد. نلاحظ، على سبيل المثال، في التحقيقات المتعلقة بمشاهدة التلفزيون وتفضيلات المشاهدين، فإن الطلب قوي بشكل استثنائي على الحصص الثقافية، التي تجتذب مع ذلك معظم الوقت على نسبة سماع سرّية. يمكن للمحقق بهذا، في بعض الحالات، أن يضلل من طرف مستجوب مشغول "بتزلف" من خلال اعتماده لأجوبة مماثلة لما يعتقد بأنه "الذوق الحسن" أو إذن جمع أجوبة ذات اهتمام رديء عندما لا يكون للأسئلة سوى درجة جد ضعيفة من الواقع للفرد المستجوب (تناول طريقة اللباس مع شخص مسن، يقطن في منطقة ريفية، على سبيل المثال).

تطرح إذن مشكلة **إنجاز التحقيق**. الذي يمكنه أن يدار بكيفية غير مباشرة، بالكتابة (وهو ما ينجم عنه عادة نسبة ضعيفة من الأجوبة لأن الجزء الوحيد من الساكنة المعنية أكثر بالمسألة تعيد الاستبيان)، أو مباشرة: عن طريق محادثة هاتفية أو لقاء وجه لوجه. عندما لا يوجد علاقة مسبقة بين المُحقِق والمُستجوب(وهو ما يمثل القاعدة)، يمنح اللقاء المباشر ضمانات أكبر لأن المستجوب يشعر عموما أكثر "معني" بالاستبيان بسبب الحضور الفيزيقي لمخاطبه. مع هذا، عندما يتعلق التحقيق

بأسئلة يمكن أن تكون محرجة - تكون لها علاقة بالحياة الشخصية، على سبيل المثال -، فإن الإغفال المحمي عن طريق مسافة المحادثة الهاتفية تبدو مفضلة[1].
عندما يوزع الاستبيان، يتم القيام بمسح ومعالجة الأسئلة المجمعة عن طريق المعلوماتية قبل تحليلها.

كل مرحلة تتضمن بهذا على مخاطر أخطاء يتمكن المحققون بفضل مهارتهم من تحاشيها لكن ذلك يتطلب انتباها حذرا.

◄ **أية مصداقية يمكن منحها إذن إلى سبر الآراء المتعلق بالممارسات الاجتماعية للأفراد؟** تقنية البحث هذه أساسية لأنها تتيح جمع كم من المعلومات المعتبرة حول مجموعة سكانية، غير أن نتائجها ينبغي أن تفسر بحذر.

بالفعل، يجب الحذر من صياغة نتائج متسرعة عندما لا نحوز إلا على معلومات عامة وبالضرورة مختزلة (فالأبحاث بواسطة سبر الآراء لا تترك سوى إمكانية نسبية لتعبير المستجوب، الذي يتوقف عند اختيار إجابة محددة سلفا). ففي مسعى مميز بالسوسيولوجيا الدينية الذي مثّله في فرنسا غابريال لو برا (Gabriel Le Bras (1970 - 1891 يتضمن، مثلا، قياس نسبة ممارسة الشعائر الدينية المحدّدة من طرف الحضور المنتظم للقدّاس: هذا المؤشر يكشف اليوم أن أقل من 10 % من السكان الفرنسيين يمكن وصفهم بالكاثوليك الممارسين المنتظمين (بمعنى أولئك الذين يشاركون على الأقل مرة في الشهر في الفرض). هل يمكن أن نستنتج، بمساعدة هذا المؤشر، بـ "نهاية الدين"؟ إن إثباتا كهذا سيكون على الأقل مقنعا لأن موافقة المؤشر تستحق النقاش: فالحضور المنتظم للفرائض بالتأكيد مركزي في الدين الكاثوليكي لكنه لا يعتبر ذا أهمية في ديانات أخرى (البروتستانتية، مثلا). إذن من المستحيل الاحتفاظ بهذا المؤشر ككاشف عن درجة عامة من "التديّن". علاوة على ذلك، فإن وسيلة قياس يمكنها أن تصير مهجورة

(1) «Un modèle d'enquête particulièrement délicate», Nathalie Bajos, Michel Bozon (dir.), *Enquête sur la sexualité en France*, Paris, La Découverte, 2008.

حينما لا تقدر على قياس تطور السلوكات الاجتماعية: إذا كـــان حضـــور إلى الشعائر قد عرف انخفاضا مطردا منذ نصف قرن في الدين الكاثوليكي، فإن أنماطا أخرى من الظواهر الدينية انبثقت، دعيت "الحركات الدينية الجديدة" (مثل صعود الحركات الكاريزمية، على سبيل المثال). هذه الحركات لم يتضح أبدا أنها مدركة عن طريق المؤشر التقليدي لحضور القـــداس. بتعـــبير آخـــر، يتوجـــب علـــى السيوسولوجي أن يتساءل بالضبط عن ملاءمة الأداة التي يستخدمها بـــالنظر إلى السؤال الذي يطرح ويتفادى "الإجراءات الروتينيـــة [أي تكـــرار الإجـــراءات]" «routinisation des procédures»: فما "يصلح" في بحث لن "يصلح" بالضرورة في آخر حتى إذا بدت المواضيع، من الوهلة الأولى، متقاربة كثيرا من بعضها.

ب - المناهج الكيفية

1- تتمتع اليوم المناهج الكيفية، وهي التي كانت حاضرة منـــذ نشـــأة علـــم الاجتماع، باهتمام متجدد

يرجع هذا بالخصوص إلى الارتياب في **المذهب الإمبريقـــي** (التجريبـــــي) **l'empirisme** الذي غالبا ما تمثل في تراكم المعطيات الكمية بغية القيام بتحليلات مقارنة، دون التساؤل بما يكفي حول دلالة عملية الجمع. هل يمكن، فعلا، مقارنة حقا الناتج المحلي الخام (PIB) (produit intérieur brut) لبلد صـــناعي والـــذي تكون له مصادر إحصائية متعددة مع ناتج لبلد في طريق النمو لا يملـــك جهـــازا إحصائيا موثوقا وحيث لا تخضع جزء أساسي من الثروة المنتجة لعملية المحاســـبة؟ ففي رد فعل لـــ الولع بالتكميم «quantophrénie»(*) - بمعنى النـــزوع لـــرد أو

(*) quantophrénieأو الولع بالتكميم أو حتى الرغبة والجنون في إخضاع كل شيء للحساب حتى الجوانب الإنسانية التي من المفروض أن تخرج عن إطار العقـــل الحاســـب والعقلانيـــة التكنولوجية، التي تفشت وأصبحت حاضرة في مجتمعاتنا المعاصرة لا سيما منـــها المتقدمـــة والتي باتت فيها ظاهرة سبر الآراء، التحقيقات والاستبيانات خطيرة للغاية وتكشف عـــن امتداد لنظرة قديمة جديدة ترد كل شيء إلى قياس كمي هو مصدر الحقيقة العلمية والشرعية القانونية والسلطة الطبية والحكامة السياسية. وباختصار فهي منحى سلوكي قد لا يكـــون عاديا ويتضمن ترجمة نسقية للظواهر الاجتماعية والإنسانية في لغة رياضية. [المترجم]

اختزال السوسيولوجيا إلى المعطيـــات الكميـــة – الـــتي اشـــتهرت خاصـــة في السوسيولوجيا الأمريكية لسنوات 1950 والتي أدت حتما إلى **نـــزعة موضـــوعية l'objectivisme** (الوضعية التي أفضت إلى تبنّي، من قبل السوسيولوجي، موقف "عبء" يسلم بأنه بديهي جملة من الظواهر التي تستحق التوقف عندها مثل نســـبة الانتحار، جدول الساكنة والفئات السوسيومهنية PCS...)، عدد معتبر من علماء الاجتماع للشمال الأمريكي نادوا بالرجوع القوي للمناهج الكيفية التي تمثل ميزة "تقريب" الباحث من موضوع دراسته.

◄ **واحدة من تقنيات البحث المستعارة من الأنثربولوجيا[1] anthropologie هي الملاحظة المباشرة أو المشاركة.** في الملاحظة المباشرة، يتوقف السوسيولوجي عند ملاحظة سلوكات الأفراد التي تكون في حالة تفاعل (مناصرين أثناء مباراة كرة القدم، أعوان الوكالة الوطنية للشغل ANPE (Agence Nationale Pour l'Emploi)[*] وهم يستقبلون طالبـــي العمل...) بينما في الملاحظة المشاركة، يتبنى سلوكا أكثر "نشاطا" ويختلط بالتواجد اليومي للسكان الذين يدرسهم: بهذا فهـــذه الطريقـــة تستخدم بشكل خاص من طرف علماء الأتنولوجيا، تبعا للأنثروبولوجي البريطاني برونيسلاو مالينوفسكي (1884–1942) Bronislaw Malinowski الذي بقطعه مع "الأتنولوجيا في الغرفة"، تقاسم مع سكان جزر التروبرياندTrobriand حياتهم واجتهد في تبيان أن تنظيم المجتمع المسمى بدائي يمتلك تماسكه الخاص وأنه لـــيس

---

(1) الأنثربولوجيا anthropologie هي العلم الإنساني الذي يتجه بالدراسة نحـــو تحليـــل عادات المجتمعات القديمة أو البدائية.

(*) ANPE الوكالة الوطنية للشغل Agence Nationale Pour l'Emploi وهي هيئـــة رسمية ومؤسسة عمومية إدراية فرنسية تابعة لوزارتي الاقتصاد، الصناعة والشغل. يكمن دورها في مركزة عروض وطلبات العمل، القيام بإحصائيات حول عدد طالبـــي الشغل وإدارة مراكز الموارد لمساعدة الباحثين عن العمل في مساعيهم وفي مساراتهم. في كـــثير من البلدان توجد هيئات شبيهة بالوكالة المذكورة بعضـــها ســـابق عليهـــا وبعضـــها استحدث حديثا سواء في أوربا (السويد، الدانمارك، ألمانيا، بريطانيا...) أو في دول نامية مثل الجزائر أو دول عربية وإفريقية. [المترجم]

"لا عقلاني": إنه يختلف ببساطة عن أنماط التفكير المعتادة للملاحظ الغربي.

إن الأنثربولوجي والأتنولوجي (المصطلحين مترادفين هنا) والذي يجد نفسه منغمسا في مجتمع ليس مجتمعه ينبغي عليه، بالفعل، بذل جهد خاص لفهم "ما يحدث" في حضارة "غريبة" وحيث يمكن، فضلا عن ذلك، أن يرى مثل مشاكس. فليس سوى مع نهاية التعلم (الأنثربولوجي يتعلم "النظر" لـ "فهم" كيف يتصرف الآخرون) أين يتمكن من التحكم في العلاقة التي يقيمها مع المجتمع المدروس. إنه يعد، بكيفية معينة، جزءا لا يتجزأ من موضوع الدراسة:

لهذا يفضل بيار بورديو Pierre Bourdieu الحديث عن توضيع مشارك **d'objectivation participante** بدلا من ملاحظة مشاركة، بما أن الأتنولوجي، "بتواجده" في المجتمع المدروس، لا يمكنه التكتم طويلا عن مشاركته في الحياة الاجتماعية للجماعة وكذا عن الآثار الاجتماعية التي يدخلها. فالأنثربولوجي الأمريكي كليفورد غيرتز (**1926 – 2006**) Clifford Geertz وهو يحضر، في جزيرة بالي **Bali**، منازلة ديكة ممنوعة، وجد نفسه من بين من اعتقلوا في حملة تفتيش للشرطة. هذه التجربة سمحت له بمشاركة حقيقية في حياة الجماعة ومن ثم أصبح واعيا بحقيقة موضوع دراسته: "ففي الظاهر فقط الديكة هي التي تتصارع هنا. في الواقع، إنهم الرجال."

إن عالم الاجتماع الكندي إيرفينغ غوفمان (1922- 1982) Erving Goffman، أحد الموجهين الرئيسيين للنزعة التفاعلية الرمزية[1]، لجأ إلى الملاحظة المشاركة، في الوقت الذي كان يدرس علاقات المرضى العقليين والعاملين بمستشفى للأمراض العقلية[2]. من أجل فهم "ما يحدث" في هذه العلاقة، فإن الكاتب، ولأسباب خاصة ببحثه تولى مهمة وهمية كمساعد لمدير المستشفى، بحث في الواقع عن الامتثال لظروف حياة المرضى حتى يتسنى له وصف حياتهم اليومية. فقد أتاحت له

(1) النزعة التفاعلية الرمزية هي تقليد جد مهم في أمريكا الشمالية التي تؤكد على البعد "البنائي" للظواهر الاجتماعية والعمليات التي بواسطتها الأفراد، بتفاعلهم، يؤثرون على بعضهم البعض.

(2) E. Goffman, Asiles. Étude sur la condition sociale des malades mentaux, Paris, Minuit, 1968 (1961).

الملاحظة المستمرة طيلة عدة أشهر القطع مع النظرة الطبعقلية، بمعنى النظرة "الرسمية" للمؤسسة والتي حسبها يتوجب على المريض أن يستفيد من علاج موجه إلى إعادة الاندماج في الحياة "العادية". إن وجهة نظر طبيب الأمراض العقلية حول المستشفى ليست سوى وجهة نظر "أهلية" التي لا تعير اهتماما للوجود الفعلي للمرضى. تبعا لملاحظاته، سيقوم غوفمان بنحت صاغ مفهوم سوسيولوجي يسمح بإدراك خصوصيات التفاعلات المرضى/الفريق العامل: **المؤسسة الشاملة**. يتعلق الأمر بمثال نموذجي للمؤسسة (بمفهوم ماكس فيبر) المعرف من قبل غوفمان كمكان للإقامة أو مكان للعمل حيث يتواجد عدد كبير من الأفراد وقد وضعوا في وضعية مماثلة منقطعين عن العالم الخارجي لفترة طويلة ويحيون حياة منعزلة تكون فيها الكيفيات واضحة ومنتظمة بدقة. وبالفعل، سيتمسك غوفمان بفهم كيف لأفراد وضعوا في وضعية جديدة "سيديرون" هويتهم الاجتماعية. لهذا السبب، سيتيح له مفهوم المؤسسة الشاملة إدراك خصوصية هذا العالم، حيث تنتج قطيعتين: قطيعة المنعزلين (وهو المصطلح المستخدم من طرف غوفمان للتحدث عن "المرضى") مع العالم الخارجي، وداخل المستشفى، القطيعة بين العاملين والمرضى. إن المفهوم المصاغ من قبل غوفمان، ضمن سياق خاص، يمكن تطبيقها على عوالم اجتماعية أخرى: سجن، دير، ثكنة، غواصة، مدرسة داخلية... يمكن اعتبارها بمثابة مؤسسات شاملة لأنها تقوم بعزل مجموعة من الأشخاص عن العالم الخارجي وتقودهم إلى العيش معا جزءا من وجودهم. فهل هذا يعني أن السوسيولوجي يخلط بين سجن ودير؟ بالتأكيد لا. غير أن إحدى مزايا المسعى السوسيولوجي يتضمن بالضبط تكوين نظرة مختلفة عن العالم، ليس لأجل الأصالة، إنما من أجل إقامة تماثلات أو تناظرات (فالدخول في مختلف المؤسسات الشاملة يتطلب هكذا جملة من الطقوس التي تشهد على قطيعة مع "الماضي"، أي مع العالم الخارجي: تسريحة شعر "نظامية"، فقدان اللقب، لبس البذلة رسمية...) وإظهار الفوارق بممارسة الطريقة المقارنة (الدخول إلى المؤسسة الشاملة قد يكون إراديا – دير، غواصة... – أو لا إراديا – سجن، مستشفى...–، وهو ما يغير بالطبع الإدراك من طرف المعني).

2- المناهج الكيفية تطرح أيضا عددا معينا من المشكلات المنهجية

◄ **هناك تقنية كيفية تستخدم عادة في السوسيولوجيا وهي المقابلة.** على العكس من البحث عن طريق الاستبيان والذي يتأقلم مع التكميم، فإن الشخص المستجوب يمتلك هامش مناورة أهم لأن تدخله لا يتوقف عند "اختيار" عنصر محدد مسبقا. فقد تكون المقابلة غير توجيهية (المستجوب غير "موجه" ويقود المقابلة بعد أن يقترح عليه السوسيولوجي موضوعا)؛ نصف توجيهية (يتدخل فيها السوسيولوجي بانتظام حتى "يعيد تأطير" المقابلة ويطرح أسئلة تكميلية)، توجيهية (تتطابق مع البحث بواسطة الاستبيان، المتناول آنفا). يتضح وأن المقابلة تقنية مثمرة لأنها ثرية بالمعلومات لكنها صعبة: كيف يمكن التأكد من صدق الأجوبة المحصلة؟ فالسوسيولوجي لن يتمكن من جمع معلومات لمجرد أنه مختص. في بعض الظروف، فإن الصورة الاجتماعية والتي هي صورته يمكنها أن تشكل عائقا إضافيا لتحقيقه: أحد السوسيولوجيين، في تحقيقه عن الشباب في وسط شعبي، وقع على إجابة غير ودية: "المثقفون، أكسر لهم أفواههم أولا ثم نتفاهم بعد ذلك."[(1)]

«Les intellos, je leur casse la gueule d'abord et on s'explique après.»

ينبغي على السوسيولوجي، بالفعل، ألا ينسى أبدا أن علاقة التحقيق هي علاقة اجتماعية مثل أخرى وينبغي إذن مساءلتها كما هي. نعلم أيضا أن الأفراد ليس لهم نفس التحكم في اللغة وأن هذه الأخيرة تختلف بحسب الوسط الاجتماعي وأكثر من هذا المستوى الثقافي. إن السوسيولوجي وعالم اللسانيات ويليام لابوف William Labov لاحظ هذا، في *التحدث العادي* (1972) *Le Parler ordinaire*، في دراسة متعلقة باللغة المستعملة في غيطوهات السود الأمريكية، أنه عندما يحصل لقاء بين البيض والسود يتخلى هؤلاء عن لغتهم "المعتادة" لصالح الإنغليزية القياسية. لإدراك اللغة العادية للغيطو، لا يمكن للسوسيولوجي اللجوء إلى المقابلة الكلاسيكية ويجب عليه إيجاد استعراض: فقد يعمد إلى تسجيل،

---

(1) G. Mauger, C. Fossé-Poliak, «Les loubards», *Actes de la recherche en sciences sociales*, no 50, 1983 et G. Mauger, *Les Bandes, le milieu et la bohème populaire*, Paris, Belin, 2006.

بواسطة ميكروفون ربطة العنق، المحادثات التي تتم داخل المجموعة. فالسوسيولوجي، في هذه الحالة الدقيقة، يضطر عن طريق الظاهرة الاجتماعية (التوزيع اللامتساوي للتحكم في اللغة داخل المجتمع) التي، مع أنها تشكّل عقبة إضافية لعمله، تفتح له سبل تحليل وتجعله على وعي باستحالة "وضع" تقنيات دون الحذر والاحتياط لمعرفة ما إذا كانت ملائمة أم لا لموضوع دراسته.

هكذا يمكن أن يبدو السوسيولوجي "مرعبا" بالنسبة لمن هم غير معتادين مطلقا على الإطالة في الكلام (خصوصا، الفئات الشعبية) والذي يهدفون، في علاقة المقابلة، التقدم على توقعاته لأجل "الحفاظ على ماء الوجه"[1]. المهمة ليست أبدا سهلة، عندما يجرؤ السوسيولوجي بالدخول في وسط اجتماعي "مغلق": ينبغي عليه توخي الحذر الشديد حتى يقبل ولمصلحته أن يعمد إلى "استراتيجيات مقاربة" سرّية بغية من الساكنة الذين اختارهم للدراسة[2]. فأبسط خطأ قد يكون قاتل وتغلق في وجهه الأبواب نهائيا. تتطلب إذن وضعية التحقيق تحقيقا نوعيا لأن الأمر لا يتعلق بإعطاء الكلمة لشخص من اجل أن يأخذها تلقائيا، وبدرجة أقل بالمعنى المتوقع من قبل السوسيولوجي.

لا يهدف هذا الإحصاء (غير الشامل) للصعوبات والخصوصيات المتعلقة بكل واحدة من التقنيات المستعملة في السوسيولوجيا إلى الحد من الميولات إزاء حجم المهمة لكن لرفع مستوى الوعي بحقيقة عدم وجود منهج جيد في ذاته، إنما فحسب مناهج أكثر أو أقل ملاءمة لاستراتيجية البحث. ومن مصلحة السوسيولوجي الجمع بين المساعي (الملاحظة المُشاركة ليست عدوة الإحصائيات) وخاصة، وفقا لصورة سائق السيارة الذي يستعد للسفر، إلى مراقبة وسيلته، إذا أراد أن لا يعرض نفسه لخطر الحادث في الطريق.

---

(1) Voir en ce sens, G. Mauger, «Enquêter en milieu populaire», *Genèses*, no 6, 1991.

(2) M. Pinçon, M. Pinçon-Charlot, *Voyage en grande bourgeoisie*, Paris, Puf, 1997.

- 3 -

التقاليد السوسيولوجية

لمحة عامة على التيارات الكبرى

يقدم الفكر السوسيولوجي تقليديا عبر المواجهة النظرية التي يتقابل فيها تيارين رئيسين، النزعة الفردية المنهجية والنزعة الكليانية. (الفردانية المنهجية والكليانية). ومع هذا فالسوسيولوجيا لا تختزل في سلسلة من الكتّاب، ولا في بيان المواقف النظرية "غير قابلة للتصالح". إنها تتميز خصوصا اليوم بعدة محاولات لتجاوز الانقسامات القديمة المرتبطة بظهور الفرع: خصائصها الرئيسية بمراجعة مقولات التحليل "الكلاسيكية" (انقسام بين الفرد والمجتمع، بين علم الاجتماع الجزئي (الميكروسوسيولوجيا microsociologie) وعلم الاجتماع الكلي (الماكروسوسيولوجيا macrosociologie...) وكذا ضمن مشروع تنفيذ مقاربة "علائقية" للظواهر الاجتماعية.

أ - الفردانية المنهجية

1- إن تعبير "النزعة الفردية المنهجية" تمت صياغته من قبل عالم الاقتصاد والسوسيولوجي النمساوي جوزيف شومبيتر (1883 - 1950) Joseph Schumpeter

إنه يشكل براديغم[1] مركزي في العلوم الاجتماعية، والذي وفقا له فإن تحليل الواقع الاجتماعي ينبع من تفسير صارم للسلوكات الفردية. تأكدت هذه المقاربة

(1) يشمل البراديغم جملة من القضايا النظرية التي تندرج ضمن إطار تحليل الواقع: صراع الطبقات هو، مثلا، قضية للبراديغم الماركسي.

بالخصوص في الاقتصاد مع تشكيل الإنسان الاقتصادي homo oeconomicus (فرْد تخيّلي يُوظف كنموذج في التحليل الكلاسيكي الجديد للسوق). في الآن نفسه عقلاني ومضخم في ظل قيود، فإن هذا الأخير نفعي ويبحث في كل وضعية عن تبني السلوك الذي، بحكم الوسائل التي يتوفر عليها، يكون انسب له.

◄ **ينسب عادة مسعى النزعة الفردية المنهجية في السوسيولوجيا إلى ماكس فيبر** الذي كتب بشكل خاص أن "السوسيولوجيا، هي كذلك، لا يمكنها أن تنجم إلا عن أفعال واحد، لبعض أو عدد من الأفراد المنفصلين. لذا يتوجب عليها أن تتبنى مناهج بحصر المعنى "فردانية "". مع هذا ينبغي ألا ننسى أن فيبر، عندما ميّز مختلف أنواع الأفعال الاجتماعية (أنظر فصل1)، سلم إراديا أن الفعل العقلاني في الغائية (ذلك الذي يتطابق مع الفرد واضعا في تكافؤ وسائله مع الغايات التي يسعى إليها) ما هو إلا واحد من أنواع الممكنة للسلوك من بين أخرى، وعمليا، بالتأكيد ليس هو الأكثر شيوعا.

◄ **في فرنسا يعتبر ريمون بودون Raymond Boudon الممثل الرئيسي للنزعة الفردية المنهجية** والذي يؤكد على الاختلافات بين مقاربة الاقتصاديين ومثيلتها لدى الاجتماعيين: بالنسبة للإقتصاديين، فإن الفرد يفترض تبنّي في كل وضعية سلوكا مطابقا لمصالحه بينما لدى الاجتماعيين فإن السياق الاجتماعي يتداخل في حساب الفاعلين. بالانطلاق من الأسباب التي تدفع الفرد إلى التصرف، فإن السوسيولوجي الذي ينتمي إلى النزعة الفردية المنهجية لا يجهل مع ذلك أن الفرد يدخل ضرورة في علاقة مع الغير، من دون أن تكون له بالضرورة إمكانية استباق أفعاله (فنموذج لاعب الشطرنج الذي يعد استراتيجية بمحاولته توقع تحركات خصمه تبدو هنا مثمرة). يتحدث ريمون بودون عن **الأثر الطارئ** (أو أيضا أثر التكوين، الأثر المنحرف...) لتحليل قوة إدماج سلوكات الأفراد لأن، بالنسبة إلى هذا الكاتب، السلوكات الجمعية يمكن ردها إلى مجموع السلوكات الفردية. هذا الأثر فضلا عن ذلك ليس قابل أبدا للتحكم فيه مطلقا من قبل الفرد

وقد يتضح أحيانا مخالفا لمشاريعه. لنأخذ على سبيل المثال تشكل طابور: إذا كان كل سائق سيارة يبدو متبصر ويتبع بعناية نصائح أمن المرور (السياقة في أوقات "الذروة")، فسينتج عن ذلك اختناق حتما كبير. إن الأثر العكسي إذن هو أثر غير مرغوب وقد يخالف استباقات وأهداف الأفراد الموضوعين بانعزال عن بعضهم البعض. إن تجميع مختلف الأفعال الفردية - مع أنها عقلانية - يمكن أن تفضي إلى وضعية والتي، على المستوى الجمعي، تظل أقل من المستوى المطلوب.

◀ لقد تم تسليط الضوء على حالة الترابط بين الأفراد والآثار من طرف الاقتصادي وعالم الاجتماع الأمريكي مانكور أولسون Mancur Olson في مؤلفه *منطق الفعل الجمعي* (1966) *La logique de l'action collective*. بتحليله للكيفية التي يتجمع بها الأفراد (في نقابة، حزب سياسي، جمعية...)، اعتقد هذا الكاتب أن تقاسم اهتمام مشترك (سواء تعلق الأمر بالدفاع عن "قيم" أو مصالح مادية) غير كاف للفعل. وباعتبار الفرد موجه، وفقا لبراديغم النزعة الفردية المنهجية، من طرف مصلحته الشخصية، خلُص أولسون إلى أن للفرد حافز على الامتناع عن كل فعل: وهو ما يسميه تناقض الفعل الجمعي. ففي حالة شن إضراب يتعلق بزيادة في الأجر، نلاحظ أنه عندما ينجح الفعل الجمعي، فإن الأرباح المحصلة توزع بين مجموع الأجراء، سواء كان هؤلاء ملتزمين أم لا في الحركة. بعبارة أخرى، فإن الفرد العقلاني من مصلحته أن يسلك كمسافر سري (إذن أن يترك الآخرين يتصرفون) لأن الفعل الجمعي تنطوي دائما على تكاليف، ذات طابع مالي (فالأجر، مثلا، تحسم منه أيام الإضراب)، اجتماعي ونفسي (من مثل مختلف الوسائل الممكنة للضغط التي تستخدمها الإدارة). إذا تبنى كل واحد هذا الاتجاه العقلي، فلن يكون هناك فعل جمعي والوضعية التي تنتج ستكون عندئذ سيئة لمجموع العمال الأجراء. يتعلق الأمر إذن بتناقض لأن المصلحة الفردية (التي توجه كل فعل حسب أنصار النزعة الفردية المنهجية) يمكنها، في بعض الحالات، أن تتناقض مع المصلحة العامة.

يعتبر أولسون Olson أن هناك عدة احتمالات لتحدث التعبئة في مجموعة صغيرة منها في مجموعة كبيرة لأن الضغط الاجتماعي الممارس على كل فرد يكون

أقوى (هكذا فإن انشقاقا يُرى أكثر وقابل للعقاب مباشرة في حين أنــه ضــمن منظمة جماهيرية، لا ينتبه له) وعندما تكون المجموعة قادرة على إنتــاج حــوافز انتقائية (بمعنى مزايا نوعية موجهة إلى أعضائها فقط: فإن نقابة يمكنــها أن تــوفر المساعدة القانونية المجانيــة، تخفيضــات علــى عــروض، أمــاكن في مراكــز الاستجمام...).

واحدة من الخصائص الأساسية للنــزعة الفردية المنهجية تكمن في تأكيدها على أن الفرد لا يمكن اختزاله لكائن "سلبــي" ("لعبة" البنيات الاجتماعية) وأنــه لن يتوقف عند تصرف "ميكانيكي" دون أن يعطي دلالة إلى فعله.

2- النــزعة الفردية المنهجية مع ذلك كانت موضــوع عــدد معتــبر مــن الانتقادات التي تركزت حول بعض افتراضاتها

هكذا فمفهوم العقلانية قابل للنقاش. لقد أدرجا عالما الاقتصاد جيمس مارش James March وهربرت سيمون Herbert Simon (هذا الأخير حصــل علــى جائزة نوبل للاقتصاد في 1978) مفهوم العقلانية المحدودة: إن الفرد، وهو يجابهــة وضعية عملية، لا يحصي مجموع الحلول الممكنة قبليا بل لا يتصور ســوى عــددا معينا، تلك التي تكون مباشرة متاحة، من بينها يختار. إن العقلانية التي يستعملها، فضلا عن ذلك، المسماة متكيفة لأن الفرد ليس عقلانيا تلقائيا: فهذه العقلانية هي ثمرة تعلم سمح له تدريجيا بالتكيف مع الظروف التي واجهها.

نقطة أخرى قابلة للنقاش ضمن النــزعة الفردية المنهجية: مفهوم المصــلحة. ماذا يعني بالتحديد هذا المفهوم والذي ذكــر كــل مــن العــالم الاقتصــادي والسوسيولوجي الأمريكي ألبير هيرشمــان (1915 - 2012) Albert Hirschman بمساره الطويل لأنه استعمل، ضمن التاريخ الغربــي، ولمدة طويلة في تعارض مــع مفهوم "العاطفة" وتمكن من أن ينتصر في لحظة (القرن الثامن عشر) حيث تمــت مطابقته مع العقل؟ فهل من الممكن الاعتقاد بأن المصلحة الفرديــة تملــي جملــة السلوكات أو، تبعا لــ إرنست غيلنر Ernest Gellner، ألا نستطيع بــدلا مــن ذلك التسليم بأن الفرد يرضى في معظم الحالات بــ "تحاشي الزلات" الأخطاء؟

"في الجزء الأكبر من حياهم، لا يعظم الرجال أي شيء، ولا يسعون إلى بلوغ هدف محدد بوضوح، لكنهم يتمسكون ببساطة بالاندماج، أو البقاء في مسرحية تلعب. يكون الدور فيها هو المكافأة خاصة بها، لكن ليس وسيلة لتحقيق وضعية معينة بوصفها غاية."[(1)]

الانتقاد الأخير الموجه للنزعة الفردية المنهجية: الفرد الحاسب الذي يصفه هذا البراديغم غالبا ما يكون فردا بلا جسد، قابل للتغيير، دون تاريخ (بمختلف معاني المصطلح) لأن أي شخص آخر سيتصرف في مكانه بنفس الكيفية باسم المصلحة الذاتية. بتعبير آخر، فإن تناقض هذه السوسيولوجيا الفردانية يكمن بالضبط في تجاهلها لما يميز الأفراد فيما بينهم. هذه "السوسيولوجيا دون موضوع"[(2)] لا تهمل كثيرا السياق الاجتماعي: فالأفراد لا يتبنون السلوكات نفسها حسب الوضعية وأكثر من ذلك حسب الإدراك الذين يكون لهم في نفس الوضعية، تصور قد يكون فضلا عن ذلك خاطئ ومختلف حسب المسارات الشخصية، الخصائص الاجتماعية... بعبارة أخرى، فإن التعاريف التي يعطيها الأفراد لمصلحتهم تبدو، عمليا، متغيرة بشكل كبير، وهو ما يجعل من الصعب صياغة الفرضيات العامة للسلوك التي يفترض أن يمتثل لها كل واحد.

ب - الكليانية

1- المسعى الكلياني يأخذ منهجا مضادا للمسعى الفرداني

◄ إذن يتعلق الأمر، لفهم ظاهرة اجتماعية، الانطلاق من المجتمع، كما هو متصور في كليته، وخاصة تحليل الضغط الذي يمارسه هذا الأخير على سلوك الأفراد.

---

(1) E. Gellner, «L'animal qui évite les gaffes ou un faisceau d'hypothèses», *in* P. Birnbaum, J. Leca (dir.), *Sur l'individualisme*, Paris, Presses de la FNSP, 1986.

(2) Sur ce point, P. Favre, «Nécessaire mais non suffisante. La sociologie des "effets pervers" de Raymond Boudon», *Revue française de science politique*, 30 (6), 1980.

تذكرنا هذه الطريقة بتلك التي دعا إليها دوركايم (أنظر الفصل 1) الذي اعتبر القطع مع الأفكار المسبقة يتمثل بالضبط في وضع بين قوسين الأسباب التي يقدمها الفرد عن فعله بما أن هذا الأخير نادرا ما يكون بمقدوره فهم "الدوافع" الحقيقية لأفعاله. بهذا يرى دوركايم أنه يتوجب على السوسيولوجيا تحليل بأية كيفية يطبع المجتمع الفرد بطرائق تفكير وتصرف تبدو له في النهاية وكأنها "طبيعية". باعتنائه بالدين وبشكل أخص بالمقدس في الديانات البدائية (خاصة، الطوطمية الأسترالية) في كتابه الأشكال الأولية للحياة الدينية (1912)، لاحظ دوركايم أن إحدى الخصائص الأساسية للدين هي بعده الجمعي والذي يكون أثره المساهمة القوية في تعزيز العلاقات الاجتماعية بين الأفراد. بعبارة أخرى، فإن الدين شأن المجتمع لأنه بحسب دوركايم "الاهتمامات الدينية ما هي إلا صورة رمزية للاهتمامات الاجتماعية والأخلاقية". يمثل الدين هكذا بعدا مركزيا لحياة الجماعة ويحاول تجاوزها.

"الحياة الدينية هي الصورة البارزة مثلما أنها عبارة مختزلة للحياة الجمعية بأكملها. إذا كان الدين قد أنشا كل ما هو أساسي في المجتمع، فذلك لأن فكرة المجتمع هي روح الدين."

إن الأفعال والأفكار التي نتخيلها شخصية (كالصلاة، على سبيل المثال) انتقلت إلينا مسبقا عن طريق المجتمع.

◄ **لقد تطور المسعى الكلياني، بعد دوركايم، من طرف التيار الوظيفاني المهم خاصة في السوسيولوجيا الأمريكية:** أهم ممثليه هم تالكوت بارسونز (1902 - 1979) Talcott Parsons الذي بحث عن صياغة نظرية عامة للفعل بمزجه تحاليل فيبر، دوركايم، وروبرت ميرتون (1910 - 2003) Robert Merton الذي اقترح مقاربة جديدة للنزعة الوظيفية. النزعة الوظيفية هي مسعى مستعمل في بادئ المر في الأنثربولوجيا من قبل مالينوفسكي: عندئذ نتحدث عن **النزعة الوظيفية المطلقة**. يتصور المجتمع باعتباره مجموعة متماسكة حيث يؤدي كل عنصر وظيفة خاصة مفيدة للتوازن الشامل. بعبارة أخرى، فإن مختلف

المؤسسات الاجتماعية (الأسرة، الدين، الدولة...) لا توجد ولا تدوم إلا لأنها تساهم، كل واحدة بطريقتها، في الحفاظ على النظام الاجتماعي. هكذا فإن مختلف العناصر تدرس، ليس في ذاتها، ولا لذاتها إنما ابتداء من علاقاتها بـ "المحيط"، أي بالنسق الاجتماعي الشامل.

صحح ميرتون نوعا ما هذه الرؤية ودعا إلى **نزعة وظيفية** نسبية. كما أسسه على مصطلح **الاختلال الوظيفي**: فالانسجام لا يمكن أن يسود على كل الوضعيات وبعض العناصر يمكنها، بفعلها، أن تساهم في عدم توازن المجتمع وفي بعض الظروف، المشاركة في تطوره. لقد أدرج كذلك مفهوم **المكافئ الوظيفي** الذي يسمح بالأخذ في الحسبان أن نفس الوظيفة يمكن، وفقا للسياق الاجتماعي، أن تمارس من قبل أعضاء مختلفين. لقد ميز أيضا **الوظيفة البارزة** (الوظيفة المفترض ممارستها من طرف عنصر) **والوظيفة الكامنة** (مساهمتها الفعلية في النظام الاجتماعي الشامل). يقدم ميرتون مثال بوس boss في الآلة السياسية الأمريكية حيث أن الممارسات السياسية مدانة بإجماع باسم الأخلاق (لأنه يمارس، مثلا، الابتزاز لتمويل الحملات الانتخابية). بالرغم من هذا فوجود بوس لا يمكن أن يفهم إلا بقصور في النظام والذي هو كاشفه.

"إن أوجه القصور الوظيفية للبنية الرسمية تولد بنية استبدال (غير رسمية) لتلبية الحاجات الحالية بشكل أكثر فعالية."[1]

بهذا أبرز ميرتون أن *الـ بوس* ***boss*** يأخذ على عاتقه انشغالات ومخاوف الفئات الفقيرة والتي يلعب لها دور المناوب. كما يوفر أيضا بمساعدة رجال الأعمال (رخص مختلفة بحقوق المرور في مقابل "رشاوي"). في الخير، يسمح لساكنة مهمة بممارسة نشاط خيري (تجارة غير شرعية للمخدرات، المتاجرة بالأسلحة...) ويساهم بشكل غير مباشر في ترقيتها الاجتماعية. إن تحليل ميرتون ليس هدفه الدفاع عن *بوس* إنما يستحق أن نتساءل، بكيفية واقعية، حول الحفاظ عن مؤسسة فاقدة للمصداقية ومع ذلك مستمرة. هذه الإطالة لا يمكن أن تفهم

---

(1) Robert K. Merton, *Éléments de théorie et de méthode sociologique* (1953), Paris, Plon, 1965.

إذن إلا بالاستعمالات التي تخضع لها المؤسسة: فبعض المجموعات الاجتماعية تستثمرها، تعترف بها وتخصص لها وظائف اجتماعية نوعية.

2- مع ذلك تم رفض التحليل الوظيفاني في نقاط عدة

إن الأولوية المعطاة للوظيفة تهدد بأن تقود التفسير إلى طريق مسدود كما أكد على ذلك دوركايم في قواعد المنهج السوسيولوجي.

"عندما نقوم بتفسير ظاهرة اجتماعية، يجب البحث على حدة السبب الفاعل الذي يحدثها والوظيفة التي تقوم بها"

إن المقاربة الوظيفية قد تبدو أحيانا محض توتولوجيا (تحصيل حاصل): إذا كانت مؤسسة ما موجودة، فذلك يعني أنها ضرورية! هذه الطريقة تملك، علاوة على ذلك، عيب عدم تصور أبدا أي عنصر للنسق من الداخل لأن كل واحد منهم سيجد نفسه مختزلا في مجرد "علبة سوداء": فالحزب السياسي، حسب هذه المقاربة، جمع خيارات المواطنين، يوظف القادة، يعد البرامج، يراقب الحكومة.... فهل هذا يعني بأن كل الأحزاب السياسية "تعمل" بنفس الكيفية؟ إن إحصاء الوظائف التي يفترض أن تقوم بها مؤسسة ما يمكن أن يمثل، في بعض الحالات، عائقا أمام فهم الظاهرة لأن هذا يفضي، بالفعل، إلى الابتعاد عن العلاقات الاجتماعية الفعلية التي تساهم في وجوده.

هذه المقاربة يمكن بهذا وصفها أن توصف بالموضوعانية [قصدنا بهذا الابتعاد عن النعت موضوعي objectif والذي ليس هو المقصود من الكاتب هنا حينما توجه إلى الشخص الذي يتحلى بالموضوعية كشرط للبحث العلمي أي objectiviste وتفاديا أيضا للفظة موضوعاتية التي صارت في الترجمات تحيل إلى ما هو تيمي أي يخص البحث أو تركيز البحث في مسألة بعينها يكون فيها موضوعا ما محل متابعة وتحقيق موضوعاتي (تيمي) thématique وكأنه أقرب إلى تخصص في الموضوع]، بالمعنى الذي لا تتعلق بالكيفية التي يتصرف بها الأفراد (بالدلالة التي يعطونها لأفعالهم، كما يقول فيبر)، ولا إلى الآثار الاجتماعية التي تنتجها (بأية كيفية، في حزب سياسي، يمارس الزعيم سلطته؟ ما هي المصادر التي يتوفر عليها

للإبقاء على رفعته؟). ففي النـــزعة الوظيفية، يبقى التفسير فريدا ويشمل بعـــديا مجموعة سلوكات تخضع غالبا إلى أنواع مختلفة من المنطق. حتى نبقـــى في نفـــس المثال، فهل من الممكن واقعيا مقارنة "وظائف" حزب سياسي فرنسي والحـــزب الشيوعي في الصين؟

من مساوئ التحليل الوظيفي أنه يهتم مع "مساحة" كبيرة بسلوكات الأفراد في المجتمع ويميل إلى الإفراط إلى حد كبير في تقدير بقاء المجتمع، المتخيل فقط على مستوى شامل.

ج - تجاوز تعارض الفردانية/الكليانية؟

1- إن التعارض بين الفردانية المنهجية/الكليانية غالبا ما يبـــدو "مُطوعـــا" في العلوم الاجتماعية

هذا التعارض الكلاسيكي لا يبرر دائما عندما نرجـــع إلى الكُتّـــاب الـــذين يفترض أهم مؤسسي تقليد. نلاحظ، بالفعل، بسرعة أن ماكس فيبر منتبه للبنيات الاجتماعية، بالطريقة التي تؤثر بها على تمثلات وأفعال الأفراد في الوقت الـــذي لم يكن فيه إميل دوركايم غافلا عن العمليات الـــتي مـــن خلالهـــا ينتـــهي الواقـــع الاجتماعي، والذي هو ليس أبدا "معطى"، إلى "التحقق" في الضمائر الفرديـــة. إن نـــزاع المناهج هذا، غالبا ما يخفي نـــزاعا آخر، أقل علميـــا وأكثـــر سياســـيا: التعارض الكلاسيكي بين الفرد والمجتمع. فبعض التقاليد السياسية تعطي الأولويـــة للفرد (الليبرالية، على سبيل المثال) بينما بعضها الآخر (مثل الاشتراكية) يصر على رفعة المجموعة. هكذا فالإعلان عن قواعد منهجية يتبين أنه أحيانا حبيس مبـــادئ تعود إلى نظام آخر.

◄ لقد سلط عالم الاجتماع نوربرت إلياس (1897 – 1990)Norbert Elias في مؤلفه، مجتمع الأفراد (1987)La société des individus، حيـــث يشـــير العنوان مسبقا إلى الطريق الواجب اتخاذها، على براعة هذا التعارض. يحـــاول إلياس إعادة قصة هذا "النـــزاع" ويبين أنه صار ممكنا تبعا لبروز "الفرد" منفصـــلا

عن المجتمع في الفكر الغربي ابتداء من القرن السابع عشر. إن فلسفة ديكارت وتأكيده: "أنا أفكر إذن أنا موجود" دالة على مرحلة نوعية لعملية التحضر المميزة بتقدم مستمر للفردنة. ففي المرحلة الإقطاعية، مثلا، لم يكن موجود مفهوم الفرد بالمعنى الذي نعطيه إياه اليوم: فهو، في الواقع، ينظر إليه عبر المجموعات التي ينتمي إليها. هذه الظاهرة تتضح أكثر في المجتمعات البدائية حيث يختزل الفرد إلى مجرد عضو في النسب، والعشيرة أو القبيلة.

إن الفكر السوسيولوجي، حسب إلياس، ضحية ومدان لقبول مقولات الفلسفة الكلاسيكية ولعدم التساؤل بما يلزم عن أسسه التاريخية.

> **"نستطيع أن نتموقع بالقرب من هؤلاء الذين يفهمون المجتمعات بوصفها أكوام أو كتل من الأفراد مع خصوصياتها وتطورها، أي ببساطة كنتيجة للنوايا والأفعال الفردية. كما يمكننا أن نتموقع بالقرب ممن يفهمون المجتمعات، العمليات الاجتماعية في ملامحها المتعددة تقريبا كما لو، بمعنى ما، توجد خارج الأفراد الذين يشكلونها وهم منفصلين عنها."[1]**

هذه المواقف البديلة تؤدي بالسوسيولوجيا إلى نفس المأزق لأنها تسعى إلى تجاهل – في التأكيد تارة على الفرد، وأخرى على المجتمع –، هذا البعد أو ذاك من الأبعاد الأساسية للواقع الاجتماعي. إذا لم يكن للمجتمع وجود خاص (فإنه يختصر في تجمع للأفراد)، فإن الفرد لا يمكن أن يفهم أكثر باعتباره وحدة معزولة (يتحدث إلياس عن إنسان منغلق (إنسان سري) *homo clausus*) لكن فقط انطلاقا من العلاقات التي تربطه بنظرائه. بهذا يأخذ إلياس مثال جسد الباليه في كتابه *مجتمع الأفراد*.

> **"إذا ما اعتبرنا بانفصال كل واحد من الأفراد الذين يشاركون في هذه الرقصة على حدة، فلن نفهم وظيفة حركاتهم..إن الكيفية التي يتصرف بها الفرد في هذه الحالة محددة بعلاقات الراقصين فيما بينهم. ولن يكون الأمر بخلاف ذلك مع سلوك الأفراد عموما."**

(1) N. Elias, *Engagement et distanciation* (1983), Paris, Fayard, 1993.

◄ **صاغ إلياس مفهوم التشكيل حتى يدرك امتزاج الروابط التي توحد الأفراد معا.** سمح هذا المفهوم بالوقوف على حالات الاعتماد المتبادل [الترابط] سواء على نطاق صغير (قاعة الدرس، عائلة) أو نطاق كبير (العلاقات المقامة بين الملك وبلاطه أو بين الدول، على المستوى الدولي). واحدة من الخصائص الرئيسية لهذا المنظور هو أن يأخذ في الحسبان العلاقات الملموسة بين الأفراد وكذا آثارها – لا سيما الضغوطات الفعلية التي تؤثر على أفعالهم. فالفرد إذن ليس "محددا" تماما، وليس "حرا" في التصرف على مزاجه، إنما يتوفر على هامش ضمن "لعبة" أين يكون متدخلا من بين آخرين.

> **"فليست "اللعبة"، ولا "اللاعبين" تجريدات. الأمر نفسه ينطبق على التشكيل الذي يمثله أربعة لاعبين حول الطاولة. إذا كان لمصطلح "ملموس" معنى ما، فيمكن القول أن التشكيل الذي يكون لهؤلاء اللاعبين، واللاعبين أنفسهم، هم أيضا ملموسين. ما يجب فهمه من التكوين، هي الصورة المتغيرة باستمرار المُشكّلة من قبل اللاعبين؛ إنها لا تتضمن فقط فكرهم، بل كل شخصهم، الأفعال والعلاقات المتبادلة. مثلما يمكن ملاحظته، يشكل هذا التكوين جملة من التوترات. الاعتماد المتبادل بين اللاعبين، وهو شرط ضروري لوجود تشكيل نوعي، هو اعتماد متبادل بكونهم حلفاء ولكن أيضا بكونهم خصوم."[1]**

2- تهدف النظريات "العلائقية" إلى إعادة النظر في علاقات الفرد/المجتمع

يؤدي اعتماد المقاربة "العلائقية" إلى إيلاء اهتمام خاص للكيفية التي بها الواقع الاجتماعي ذهابا وإيابا: باعتبارها ظاهرة تفرض نفسها على الجميع، ولكن أيضا بواسطة لاستبطان التدريجي في الضمائر الفردية.

◄ تسمى العملية التي عبرها تنتهي مجموعة من "الأشياء" (مثل الدولة، الطبقة الشغيلة، الأسرة...) إلى أن تكون "بديهية" بالنسبة إلى الفرد، تسمى

---

(1) N. Elias, *Qu'est-ce que la sociologie ?* (1970), Paris, Pandora, 1981.

التوضيع الاجتماعي. هناك مجموعة من الظواهر "تترسب" وتكتسب مع نهاية العملية وجودا مستقلا بصرف النظر عن الأفراد الذين يتقمصونها. هكذا هو الحال، مثلا، عن الدولة (أنظر القسم الثاني، الفصل 5) التي "توجد" في الأذهان كما هي واقع اجتماعي "موضوعي": لهذا السبب تتوفر الدولة على قوة اجتماعية والتي لا تختزل فقط في النشاط الفعلي للفاعلين الذين يتكلمون ويتصرفون باسمها. هكذا فالواقع الاجتماعي موجود على مستويين بوصفه واقعا متموضعا (التاريخ ينتج واقعا يفرض نفسه على أعين الجميع) ومدرجا (التاريخ مستبطن من طرف الأفراد بحكم خصائصه الاجتماعية الخاصة).

> **"كل فعل تاريخي يضع وجها لوجه حالتين من التاريخ (أو الاجتماع): التاريخ في الحالة المتوضعة، بمعنى التاريخ الذي تراكم على مر الزمن في الأشياء، الآلات، البنايات، النصب، الكتب، النظريات، العادات، الحق، إلخ.، والتاريخ في الحالة المدمجة، عندا يصير استعدادا"[1]**

بهذا، للواقع الاجتماعي بعد مزدوج: إنه يتجسد في أشياء تكتسب "وجودا" مستقلا كذلك في الأذهان التي تستبطن طرائق نوعية لـ "رؤية" الواقع وتساهم بهذا في إنتاجه. يستخدم السوسيولوجي البريطاني أونطوني غايدنس Anthony Giddens عبارة **ثنائية البنيوي dualité du structurel** حتى يبين أن الواقع الاجتماعي يفرض نفسه على الفرد لما يأتي إلى العالم (اللغة، قواعد آداب السلوك تنتقل إليه من طرف من سبقوه) لكنه يساهم، بدوره، في الحفاظ عليه بالتصرف وفقا لتوقعات الغير.

---

(1) بورديو P. Bourdieu، "الميت يدرك الحي «Le mort saisit le vif». العلاقات بين التاريخ المتشيء والتاريخ المدمج «Les relations entre l'histoire réifiée et l'histoire incorporée»"، منشورات البحث في العلوم الاجتماعية *Actes de la recherche en sciences sociales*، رقم 33/32، 1980. L'habitus الاستعداد يمكن أن يعرف كمجموعة مبادئ إدراك وتقدير للواقع الاجتماعي التي تقود الفاعل الاجتماعي إلى أفعال نوعية (أنظر القسم الثاني، الفصل 2)

◄ **يؤكد إيرفينغ غوفمانErving Goffman، مثل جماعة السوسيولوجيين التفاعليين، على علاقات "وجها لوجه" القائمة بين أفراد يسعون إلى ضمان السير الحسن للتفاعل (حتى يحفظ كل واحد من المشاركين ماء الوجه) وكذلك يساهمون، بطريقتهم الخاصة، في الحفاظ على النظام الاجتماعي.** هكذا درس غوفمان طقوس التفاعل التي من خلالها يتواصل الأفراد مع بعضهم البعض: يتعلق الأمر باحترام جملة من القواعد المقننة (اللباقة، الرقة) للحفاظ على الهوية الاجتماعية للشخص الذي ندخل معه في علاقة.

طقوس المرور تتحكم في كيفيات مباشرة الغير وتكشف عن الانهمام بالحفاظ على رقعته ("معذرة")

طقوس التأكيد تضمن هوية الفاعلين (إظهار الفارق بوضع الضيف في مكان الشرف)

طقوس الإصلاح تبرز عندما يرتكب فرد ما خطأ يشكل خطرا على نهاية التفاعل (الاعتذار بعد طرح سؤال حرج، إبداء علامات الحياء...)

هكذا تكتسي العلاقات الاجتماعية التي يتواجد فيها الأفراد احترام عددا معينا من القواعد الاجتماعية الضمنية التي تزودنا بالدليل أن كل واحد "يلعب جيدا اللعبة". وعندما يكون الأمر عكس ذلك، يتعرض الفرد إلى مخالفات عدة قد تكون بعضها ثقيلة مثل، الإقصاء من مجموعة اجتماعية (أنظر القسم الثاني، الفصل 3).

إذن التنظيم الاجتماعي لا يفرض على الأفراد "ميكانيكيا" ومن "الخارج" لأن هؤلاء يسهمون بطريقتهم - وفي الغالب من دون أن يعيروا ذلك كبير عناية - في استمراره عبر مجموع التفاعلات التي يربطونها ببعضها.

القسم الثاني

بعض المواضيع الرئيسية في السوسيولوجيا

- 1 -
الثقافة

1 - فهم الدافع إلى الفعل

أ - تعريف الثقافة

1- لمفهوم الثقافة معنى محدد في العلوم يختلف عن دلالته العادية

◀ **إن مصطلح الثقافة، الذي استخدم في بادئ الأمـــر في الأنثربولوجيـــا حدد مجموع المعتقدات، العادات، طرق التفكير والفعل الخاصة بمجتمع إنســـاني ما.** كل مجتمع يملك بهذا ثقافة تكون مهمة الأتنولوجي اكتشافها. حجم هذه المهمة (المتناولة باختصار عند دراسة المناهج الكيفية (أنظر القسم الأول، الفصل 2) يكمن في محاولة فهم الدلالة التي يعطيها الأفراد لأفعالهم. وأهم خطر يترصد الأتنولـــوجي، في الطريق نحو أرض مجهولة (سواء تعلـــق الأمـــر بالأمـــازون أو بقريـــة بيارنيـــه béarnais(*) هو النـــزعة العرقية المركزية (الأتنويـــة) L'ethnocentrisme، بمعـــنى الاتجاه الذي يحيل إلى قيم خاصة في الحكم على الآخرين، وهو ما يفضي إلى إنكـــار الاختلافات الثقافية تحت اسم "تفوق" مجتمع المُلاحِظ. لقد أوضـــح الأنثربولـــوجي الفرنسي كلود ليفي - ستروس (1908 - 2009) Claude Lévi-Strauss في مؤلفه العرق والتاريخ (1952) *Race et Histoire*، استمرار هذا الموقف الـــذي يتضـــمن "طرح خارج الثقافة، في الطبيعة كل ما لا يتماثل مع المعيار الذي نحيا في ظله". بهذا

(*) نسبة إلى مقاطعة فرنسية تقع على سفوح جبال البرينيه Les Pyrénées وقد كانـــت فيما مضى دولة ذات سيادة وهي اليوم تضم عددا هاما البلديات والقرى ويتجاوز عدد سكانها 250 ألف نسمة. [المترجم]

فالإنسانية يمكن أن تخفض، في المجتمعات التقليدية، إلى حدود القبيلة: "الآخرون"، يحولون بغير رجعة إلى "متوحشين"، يتم تجريدهم من صفة الكائنات البشرية، وعلى هذا النحو، يمكن أن يكونوا محل معالجات مهينة (مذلة). إن النزعة المركزية العرقية في صورها المتطرفة تفضي إلى العنصرية، أي إلى الاعتقاد بوجود تراتبية بين "الإثنيات" أو "الأجناس".

- إذا كان الأتنولوجي عادة محترز من هذا النوع من "الاعتقاد"، فإن النزعة المركزية العرقية يمكنها أن تتجلى بطريقة مخادعة في دراسته. فالمنعكس "الطبيعي" عندما نكون في مجتمع ليس هو مجتمعنا، هو أن نستند إلى علاماتنا الخاصة، وهو ما قد يؤدي إلى تجاهل خصوصيات المجتمع المدروس. إن الأتنولوجي أو السوسيولوجي (وهما، حول هذه النقطة، متشابهين تماما) ينبغي عليه بذل جهده لفهم منطق الظواهر التي، وهي غير معروفة لديه، لها جميع خصائص "الغريب" (المدهش). حالما تتم هذه التجربة، تكون لديه الإمكانية للتساؤل في المقابل عن ثقافته الخاصة: يستطيع عندئذ فهم ما يقدر أنه "طبيعي" (مصافحة أحد معارفه، ارتداء ملابس سوداء عند الحداد، السياقة على اليمين، إلخ.) تعود في الواقع إلى المجال الثقافي، بمعنى جملة التقاليد المكتسبة والمنقولة في مجتمع معطى. هكذا يشير نوربرت إلياس، في مؤلفه *حضارة الأخلاق* (1939) *La civilisation des moeurs*، إلى أن تعميم استعمال شوكة المائدة (كممارسة اجتماعية والتي تبدو لنا اليوم مألوفة بحيث لا يخطر على بال أحد التساؤل عن أصلها) يفسر عن طريق تحولات عملية التمدن الغربي والتي كانت من نتائجها الرئيسية الاستبطان الدائم من قبل الأفراد لعدد دوما مرتفع للمعايير الاجتماعية وكذا التقنين التدريجي لقواعد الحياة في المجتمع.

"لماذا يجب استعمال فرشاة؟ لماذا هو "همجي" و"غير متحضر" عندما يتناول بأصابعه ما يوجد على صحنه الشخصي؟ لأننا نبدي شعورا بعدم الارتياح عندما نلطخ أصابعنا أو على الأقل عندما نرى في المجتمع بأيدي وسخة أو دسمية. إن احتمال انتقال الأمراض، بمعنى "السبب العقلاني" ليس له كبير دخل في منع الكل بالأصابع في طبقه الخاص."

◀ **تختلف إذن المعايير الثقافية في كل مجتمع حسب السياق التاريخي**: حتى يتسنى للناس التعود على الاستعمال المنتظم للشوكة في الطاولة، توجب ذلك قبلا تعديل الحساسيات أو "الاقتصاد الغريزي والوجداني" حسب تعبير إلياس. فبعض الممارسات الغذائية الأخرى، مثل جلب حيوان حي موجه للأكل يحكم عليها فصاعدا بأنها "همجية" لأنها لا تتفق مع الوضع الحالي لمسار التحضر.

هذا المثال يبين أن **المعايير والممارسات الثقافات، وبعيدا عن كونها عالمية، فهي خاصة ومتطورة**. إن التمهيد "للنسبية الثقافية" سمح بانتشار للوعي بأن المعايير التي نتخيلها ثابتة يمكنها أحيانا، هي كذلك، أن تفاجئنا بتفردها (فقد تساءل مونتسكيو، في عبارة لا تخلو من السخرية "كيف يمكن أن أكون فارسيا؟" كتب مونتسكيو، وليس دون تهكم): يمثل هذا المسعى وسيلة مرور لثقافة الغير. الثقافة الخاصة إذن لا تشكل عائقا، عندما لا نتصورها مثل معيار للقيم، إنما على سبيل المقارنة: ممارسات "الآخرين" تستطيع بهذا أن توضح، لما تواجه وترتبط مع مثيلتها لمجتمع الأتنولوجي.

2 – لثقافة "الآخرين" منطقها الخاص

◀ إن الأسباب الكامنة خلف المبادلات في المجتمعات البدائية يمكنها أحيانا أن تربك الملاحظ الغربي. فتبادلات السلع والخدمات في مجتمعنا هي أساسا من نظام سوقي وغالبا ما تؤدي إلى معاملات نقدية. مع ذلك، اظهر علماء الأتنولوجيا أن التبادل السوقي ما هو إلا شكل من بين أشكال أخرى في التبادل، فرض نفسه ابتداء من اللحظة التي أصبح فيها الاقتصاد ميدانا للنشاط المستقل المنفصل عن الأنشطة الاجتماعية الأخرى: وهو ما يدعوه الأنثربولوجي كارل بولاني (1886 – 1964) Karl Polanyi **فك الإندماج désencastrement** للدائرة الاقتصادية من الاجتماعي [أي فك ارتباط الجانبين الاقتصادي عن الاجتماعي]، وهي ظاهرة لم تفرض حقيقة إلا ابتداء من القرن التاسع عشر، في إنغلترا أولا، ثم فيما بعد في مجموع الغرب. اهتم الأتنولوجي الفرنسي مارسيل موس (1872 – 1950) Marcel Mauss، وهو بن شقيقة إميل دوركايم، في بحثه حول *الهبة Essai sur le don*، بدلالة التبادلات عند القبائل البولينيزية. وأولى

خاصياتها أنها لا تربط الأشخاص الفيزيقيين، إنما المجموعات الاجتماعية.

"في البداية، ليس الأفراد، بل الجماعات هي من أجبرت بعضها البعض، تبادلت وتعاقدت؛ الأشخاص الحاضرون في العقد هم أشخاص معنويين: العشائر، القبائل، الأسر، تتجابه وتتقابل سواء في جماعات تواجه بعضها البعض في الميدان نفسه، أو بواسطة رؤسائها، أو بهاتين الطريقتين معا."[1]

إن تبادل السلع، علاوة على بعده الجماعي، يقدم عادة من دون مقابل: فالأمر يتعلق بهبة. لاحظ موس هكذا أن طقوسا تتحكم في مراسم الهبة وتجري على ثلاث مراحل: حدد ثلاثة أنواع من الإلتزامات تتعلق بميكانيزم **هبة ضد هبة**.

إلزام بمنح (هدية، مجاملات، حفلات.....) هي دليل على احترام أو غياب العداوة إزاء قبيلة مجاورة

إلزام قبول يفرض لأن الرفض يعني وكأنه كيد وينجم عنه أوتوماتيكيا الثأر (الانتقام)

أخيرا، إلزام الإرجاع، يسمح بعدم التعرض "للإهانة" ويطلب بإعادة على الأقل قدرا معادلا لما تم استلامه وعادة ما يكون أكثر.

إذن ما هي دلالة ممارسات التبادل هذه التي لا تبدو مطلقا "عقلانية"، بمعنى اقتصاد السوق، لأن الأمر لا يتعلق فقط بالحصول على سلع بأقل ثمن إنما فضلا عن ذلك، يشرع في سباق حقيقي بين القبائل لأجل تقديم المزيد من السلع.

وبعيدا عن النظر إلى هؤلاء البدائيين بوصفهم مجردين من العقل، اجتهد موس Mauss فهم ما هو على محك ميكانيزم التبادل هذا وأدرك أن الهبة هي وسيلة لقبيلة أو قبل ذلك لرئيسها ليحرز جاها، بمعنى السلطة على القبائل الأخرى.

"لا يوجد في أي مكان أن يرتبط الجاه الفردي لقائد أو جاه عشيرته أشد ارتباطا بالإنفاق، وبالدقة في إعادة الهدايا المقبولة بشكل مضاعف، بطريقة يتحول معها إلى إلزام من ألزمك (...) وهو ما يؤول إلى من هو أغنى وأيضا من هو سخي بجنون."

---

(1) M. Mauss, *Sociologie et anthropologie*, Paris, PUF, 1950.

لذلك فلا شيء أكثر منطقية من الهبة في المجتمع القديم، لأنه وفقـا لقواعـد الشرف، فهي الركيزة الأساسية للقوة الاجتماعية. ومع هذا لا ينبغي اعتبار البعد الرمزي للتبادلات هي دليل جلي على القدم والابتذال وأنه لم يعـد متـداولا في مجتمعاتنا: إذ يكفي، مثلا، أن تستدعى لحفل عشاء وتقدم باقة ورد وهو ما سيثير دون شك اندهاش سيدة المنـزل (حتى لو كانت الورود المختارة لكل دعوة هي بالضبط نفسها) وكذا تشكراتها، لنلاحظ أن عددا معتبرا من التبـادلات (هـدايا أعياد الميلاد، الرسائل القصيرة SMS) تعمل بكيفية تبادلية، حـتى وإن كـان في الغالب الزمن الفاصل بين لحظة الهدية والهدية المردودة يوهم كل مشارك بغيـاب كلي للمقابل، وهو ما يعزز كذلك من نجاح هذه الممارسات.

ب - ثقافة أم ثقافات؟

1 - مفهوم الثقافة يمكن أن يستخدم في السوسيولوجيا على مستويات مختلفة

◀ **إن المقاربة التقليدية (الموصـوفة عـادة بالثقافويـة) متأتيـة مـن الأنثربولوجيا وتتصور الثقافة باعتبارها جملـة مـن الممارسـات والتمـثلات الاجتماعية المتماسكة والمميزة لمجتمع معين.** هذه المقاربة الشاملة، المطورة خاصة من قبل السوسيولوجي الأمريكي رالف لينتون (1891 - 1981) Ralph Linton والمحلل النفساني أبرام كاردينر (1891 - 1981) Abram Kardiner، يلح علـى الخصائص النوعية لكل نسق ثقافي. هكذا، يوجد في كل ثقافة، شخصية أساسـية (قاعدية) والتي هي نتاج فعل الهيئات المختلفة (مثل العائلة، العشيرة...) المكلفـة بتلقين الأفراد القيم والمعايير الثقافية للمجتمع. يتجلى وزن الثقافـة في الميـادين المختلفة للحياة الاجتماعية (دين، فن، اقتصاد...). بناء عليـه، تـولي المقاربـة الثقافوية أهمية بالغة للتجانس الثقافي الذي يميز كل مجتمع بشري.

- مع ذلك فهذه المقاربة كانت عرضة لعدد معين من الانتقادات المبررة: الثقافة متصورة في هذه النظرية ككتلة ثابتة قابلة لتفسـير مجمـوع السـلوكات الاجتماعية. بتعبير آخر، فإن النسبية الثقافية "المتطرفة" التي تفضي إليها (لكل ثقافة خصائصها التي تميزها باستمرار عن ثقافة أخرى) يمكن أن تصبح عقبة

في وجه المقارنة: انتظامات ليست قابلة للملاحظة من قانون ثقافي إلى آخر؟ إضافة إلى ذلك، فإن الوحدة الثقافية للمجتمع نفسه مبالغ في تقديرها كثيرا - حتى في حالة المجتمعات المميزة بدرجة أقل مثل المجتمعات التقليدية ولسبب أكبر، عندما يتعلق الأمر بالمجتمعات الحديثة. في الواقع، يمكن للرموز الثقافية أن تمتزج داخل نفس المجتمع وتحيل خاصة على مختلف المجموعات التي تشكل قاعدته الاجتماعية.

◄ **توجد مقاربة أكثر اهتماما بالدلالات التي يعطيها الأفراد إلى أفعالهم، في تقليد ماكس فيبر، يقترحها كليفورد غيرتز** Clifford Geertz: والحالة هذه فالثقافة لا تفهم كجملة من الاعتقادات والممارسات الاجتماعية مكونة "كلا" إنما بشكل أكثر بمثابة قانون يتيح للناس التفاهم والتواصل فيما بينهم.

> **"إيمانا، مع السيد فيبر، بأن الإنسان حيوان معلق في اللوحات التي نسجها هو نفسه، ففي نظري تكون الثقافة هي هذه اللوحات، وتحليلها ليس علما تجريبيا باحثا عن القوانين، لكن علم تاويلي يبحث عن الدلالة."**

فالقول بأن فردين يتقاسمان نفس الثقافة لا يعني إلى حد أنهما سيتصرفان بطريقة مماثلة لأنه، إذا كانت الثقافة قانون، فإنها ستكون لا محالة موضوع استعمالات متنوعة. والحالة هذه، لا يمكن للأتنولوجي الاكتفاء باستنباط خصائص ثقافة ما إنما عليه أن يجتهد، بحسب تعبير غيرتز، في "القراءة فوق أكتاف السكان المحليين" بغرض إدراك الطريقة التي يحينون بها قانونهم الثقافي وبأية طريقة يحولونه. خلافا للمقاربة الثقافوية والتي لا يطرح لديها انتقال الثقافة أية مشكلات من جيل إلى آخر، يمكن أن نقبل، باستخدامنا لصيغة ليفي - ستروس، بأنها ناتجة أساسا من "ترقيع": كل ثقافة تعيد تكوين ذاتها، تتحول (بل حتى تتشوّه) عبر مختلف الاستعمالات التي نخضعها إليها. إذن تستحق الثقافة بأن ينظر إليها بكيفية يتم فيها التفكير على أنها خزان للمعنى لأنه، إذا كانت تجعل ممكنا، في عالم اجتماعي، بعض الأفعال وتمنع بعضا آخر، فإنها لا تحدد سلفا أبدا ومطلقا التصرفات. تستفيد الثقافة أيضا في أن تكون ملاحظة "في الأفعال"، أي ابتداء من أفعال واستخدامات

التي يقوم بها الأفراد وليس فقط انطلاقا من نصوص لأن هذه يمكن أن تكون محل امتلاكات متعددة: النصوص الدينية، على سبيل المثال، لا تقول شيئا حول مختلف تأويلاتها، ولا عن استعمالاتها الملموسة والتي قد تتنوع بشكل كبير حسب السياق[1].

2- العالم الثقافي أقل تجانسا بكثير مما تقترحه المقاربة الثقافوية

◀ **الثقافات ليست مغلقة في وجه بعضها البعض**: فعملية **التثاقف** التي تعني للفرد أو للمجموعة الاندماج في ثقافة مختلفة عن ثقافته (على غرار، مثلا، ظواهر الهجرة[2]) تولد عددا معينا من الآثار الاجتماعية في الوقت نفسه على الثقافة الأصلية (التي تتغير باستيراد "عناصر جديدة" خصوصا بواسطة الحفاظ على علاقات بين المهاجرين والسكان الباقين في "البلد") وعلى ثقافة "الاستقبال" لأن بعض الممارسات (الأكل، اللباس...) يعمل المهاجرون على إدخالها بالتدريج.

تسعى المراجع الثقافية إلى التنوع عندما، تبعا لعملية تقسيم العمل، يميل **الوعي الجماعي** (كما حدده دوركايم بوصفه "مجموع المعتقدات والمشاعر المشتركة لأعضاء نفس المجتمع") إلى الضعف. تتنوع المعايير الثقافية للمجتمع تنوعا كبيرا ويمكن أحيانا أن تتعارض من مجموعة اجتماعية إلى أخرى: على هذا المنوال نتحدث عن **ثقافة فرعية** في إشارة إلى القيم والممارسات الاجتماعية لمجموعة ما داخل المجتمع و**ثقافة مضادة** لما تعارض مجموعات الثقافة المهيمنة وتدعو إلى تأسيس قيم ثقافية جديدة.

◀ **تختلف المعايير الثقافية بشكل عميق من وسط اجتماعي لآخر**، كما يؤكد ذلك بيار بورديو، في مؤلفه *التمييز* (1979) *La Distinction*، في تقابل لتنظيم "وجبة برجوازية" و"وجبة شعبية": فبينما تتميز الطبقات الشعبية بما يشار

(1) Voir Jean-François Bayart, *L'Illusion identitaire*, Paris, Fayard, 1996.

(2) Abdelmalek Sayad, L'Immigration ou les paradoxes de l'altérité, Paris, Seuil, 2006.

إليه "الكلام الصريح"، يسميه بورديو "الأكل الصريح"، تضع الفئات العليا نقطة شرف للأكل "في الأشكال". يحيل هذا التقابل، وبعيدا عن أن يكون تافها، إلى رؤيتين للعالم كل شيء يباعدهما.

في حالة أولى يطلب الطعام في حقيقته كمادة مغذية، يتصل بالجسم ويمنحه القوة (الذي يميل إلى تفضيل الأطعمة الثقيلة، دسمة وقوية، حيث يكون أنموذجها لحم الخنزير، دهني ومالح، نقيض السمك، هزيل، خفيف ولا طعم له)؛ في الحالة الأخرى، تعطى الأولوية للشكل (الجسم على سبيل المثال) وإلى الأشكال فيبعد إلى الصف الثاني البحث عن القوة والاهتمام بالمادة والإقرار بالحرية الحقيقية في التقشف الإنتقائي لقاعدة مقررة للأنا ذاته."

حسب بيار بورديو، فإن من السمات الرئيسية لأسلوب الحياة الشعبية هو "جعل من الضرورة فضيلة"، بمعنى، على العكس من الأوساط الاجتماعية الأخرى، التخلي عن كل شكل لـ "الزعم" تحت اسم "البساطة"، كما يتجلى في الاستهلاك الغذائي، منه، مثلا، في الاستهلاك الثقافي. هكذا تتحدد الطبقات الشعبية "جوفاء"، بمرجعية إلى "الذوق الجيد" الذي لا تملكه، وبالتالي لذوق البرجوازي. والحالة هذه، **فالثقافة الشعبية** هي ثقافة خاضعة لأنها ليست أبدا متصورة في ذاتها ولا لذاتها، إنما على الدوام بالنظر إلى ثقافة شرعية (الثقافة المشتركة بين الفئات المهيمنة) التي تملك بهذا ميزة تحديد المعايير الثقافية انطلاقا منها يتم تقييم المجموعات الاجتماعية: هكذا فالموسيقى الكلاسيكية هي أكثر "شرعية" من الجاز jazz، الجاز jazz هو بدوره أكثر مشروعية من الروك rock، الروك rock أكثر من الراب rap...

من ميزات تحليل بورديو تبيانه أن أمور "الذوق" هي بشكل كبير قضايا المجتمع لأنه وراء مظهر الحكم الشخصي ("أحب المسرح الكلاسيكي وأمقت المسرح الهزلي") (*«J'aime le théâtre classique et je déteste le vaudeville»*) يختفي حكم اجتماعي، بمعنى فرض **التعسف الثقافي** الذي يجعل من ثقافة خاصة (تلك الخاصة بالفئات المهيمنة) معيارا اجتماعيا بامتياز. إن المعايير الثقافية المنتشرة بواسطة المدرسة، تحت مظهر الحياد (الكتابة الصحيحة، الالتزام بالنظام...) بسبب مجاورتها

للثقافة المشروعة، فمن نتائجهم فرض **هيمنة ثقافية** حيال الفئات الشعبية التي، مع أن غالبيتها مستبعدة من النظام المدرسي تأخذ داخل مبنى المدرسة، جزئيا، مقياس المسافة الذي يفصلها عن الذوق الشرعي.

لقد أظهر السوسيولوجي البريطاني ريتشارد هوغارت Richard Hoggart في مؤلفه *ثقافة الفقير* (1957) *La Culture du pauvre*، عبر مثال العالم العمالي الإنغليزي، أن الاستهلاك الثقافي للطبقات الشعبية يخضع لأنواع خاصة من المنطق لا تختصر بالضرورة في المسافة التي تفصلهم عن الأذواق المشروعة.

> **"إذا لم يخفض أغلب أعضاء الطبقات الشعبية إلى وضعية مستهلكين سلبيين للثقافة الجماهيرية، فذلك ببساطة لأنهم "غائبون"، لأنهم يعيشون في عالم آخر أين يمكنهم أن يظلوا أوفياء للتأكيدات الملموسة، لعاداتهم وإلى طقوسهم اليومية وكذا إلى لغتهم العرفية المكونة من الأمثال والأقوال التقليدية."**

تظهر إذن الأوساط الشعبية، حسب عبارة هوغارت، انتباها ملتويا (بمعنى نظرة غالبا ما تكون ملهية ولكن أيضا متباعدة وتهكمية) نحو صحافة الإثارة والروايات ذات السحب الكبير الموجهة إليهم أولا. بهذا فهم يقدمون الدليل على فطنتهم في ممارساتهم اليومية بعدم جهلهم بالشيء الكبير من "الحيل" المستعملة لجذب انتباههم، أحيانا من جهة أخرى وبشكل كبير من... بعض السوسيولوجيين يقدمون الطبقات الشعبية بوصفها ضحايا أبدية لـ "تكيف".

> **"مع ما يوجد في لذة قراءة هذه المطبوعات، فإن أفراد الشعب لا يضيعون لا هويتهم، ولا عاداتهم؛ فهم يتمسكون في أذهانهم بفكرة مفادها أن لا شيء "واقعي" وأن "الحياة الحقيقية" تجري هناك في مكان آخر."**

بانخراطه في دراسة أتنوغرافية للفئات الشعبية، لاحظ هوغارت الكيفية التي ينتظم بها **الإيتوس**[1] **l'éthos** الشعبي. إن التعارض المركزي الذي يهيكل نظرته للعالم وهو ما يسميه هوغارت الفصل الحاسم بين عالمين وفئتين غير قابلتين

---

(1) **الإيتوس** مفهوم مستعمل من قبل ماكس فيبر، ثم بيار بورديو ويشير إلى مجموع المبادئ الأخلاقية الضمنية الخاصة بفئة اجتماعية والتي تحكم سلوكاتها اليومية.

للاختزال: **"هم" و"نحن"**. في العالم الشعبي، فالتواجد بين الأقران [فيما بينهم] يملك قيمة لا تقدر بثمن: إنه يسمح بـ "مرور" والاحتفاء بالقيم المشتركة (الفحولة، الصداقة...) والهروب من ثقل السلطة الممثلة بواسطة القيم المهيمنة. لقد أبرزت خلاصات هوغارت بأنه يجب الحذر من تصور أن الثقافة الشعبية فقط ضمن سجل الهيمنة التي تفرض عليها لأن "ثقافة مهما تكن خاضعة، مهما تكن مُداسة، فإنها تعمل أيضا كثقافة".[1]

حثّ كل من كلود غرينيون Claude Grignon وجان - كلود باسرون في كتابهما العالم والشعبي (1989) *Le Savant et le Populaire*، Jean-Claude Passeron السوسيولوجي الباحث في الأوساط الشعبية على اليقظة لأن المسافة الثقافية الموجودة (والتي يتعلق الأمر بتحليلها) بين السوسيولوجي والعالم الذي يدرسه يجعل تحقيقه عرضة إلى عدد معين من المخاطر. هناك "وجهان" متناقضان في الظاهر ويستخدمان عادة في الأدب يفرضان نفسهما في وصف الأوساط الشعبية: **الشعبوية le populisme** تتضمن الاحتفاء بثقافة شعبية بسبب "أصالتها" (الدراجة، التخييم...)... وترجع إلى إغفال العلاقات التي تقيمها هذه مع الثقافة الشرعية (خصوصا أثار الهيمنة الثقافية)؛ **البؤسوية le misérabilisme**، على العكس تتضمن تصور الثقافة الشعبية انطلاقا من الثقافة الشرعية، وهو ما يكون أثره التأكيد على كل "النقائص". هاتين النظرتين، اللتين قد توجدان أحيانا تحت نفس القلم، تشتركان في تجاهل في ماذا وإلى أي نقطة تكون الثقافة الشعبية متفردة. تناول ثقافة "الآخرين"، مهما يكونوا، تستوجب إذن أخذ احتياطات، إذا أردنا حقيقة فهم ما يدفعهم إلى الفعل في العالم المألوف لديهم.

---

(1) Claude Grignon, «Un savant et le populaire», *Politix*, no 13, 1991.

- 2 -

التنشئة الاجتماعية

تعلم العيش في المجتمع

أ - عملية التنشئة الاجتماعية

1- يمكن أن تعرف التنشئة الاجتماعية بوصفها العملية التي من خلالها يستبطن الأفراد معايير وقيم المجتمع الذي يتطورون فيه

تنجم التنشئة الاجتماعية إذن عن تعلم: فالفرد، بغض النظر عن التفاعلات المتعددة التي تربطه بالآخرين، يتعلم تدريجيا تبني سلوكا متطابقا مع توقعات الآخرين.

◀ **عادة هناك مرحلتين هامتين متميزتين في عملية التنشئة: التنشئة الأولية** والتي تبدأ منذ الولادة وتمتد طيلة الطفولة، و**التنشئة الثانوية** التي تجري فيما بعد، طوال كل المسار الاجتماعي للفرد. التنشئة الأولية هي الأكثر أهمية لأنها تزوّد الطفل بمعالمه الاجتماعية الأولى والتي ستميّزه طوال كل وجوده وتعمل فيما بعد كـ "مصفاة": فالتجارب المعاشة لاحقا ستضبط، في الواقع، على مرجعية الأولى التي ساهمت في هيكلة باستمرار طرق التفكير والفعل للفرد.

"تعمل التنشئة الاجتماعية بهذا (في وقت لاحق، بالطبع) ما يمكن اعتباره مثل أهم دور يلعبه المجتمع بالنسبة إلى الفرد - إظهار كضروري ما هو في الواقع سوى جملة من المصادفات [العارضيات] - وبالتالي إعطاء دلالة لحادث ولادته[1]."

(1) P. Berger, T. Luckmann, *La Construction sociale de la réalité* (1966), Paris, Méridiens Klincksieck, 1986.

◄ كل المجتمع يتجلى هكذا في نقل القواعد الاجتماعية لأن التماسك الاجتماعي يوضع على المحك أثناء عملية التنشئة، كما أكد على ذلك دوركايم بشدة. في الواقع، يوجد النظام الاجتماعي محل ارتياب وتشكيك عندما لا يكون انتقال القيم من جيل إلى آخر مضمونا. لقد سلط الأنثربولوجيون الضوء على الرهان الذي يمثله انتقال المعايير الاجتماعية في المجتمعات دون كتابة. تبدو هذه المجتمعات أكثر "هشاشة" من المجتمعات الحديثة التي تتوفر على جملة من الاستعدادات القادرة على الحفاظ على النظام الاجتماعي (قوانين مكتوبة للعاملين المكلفين بالحفاظ على النظام...). إن عددا معينا من الأفعال الجليلة، ذات قيمة رمزية كبيرة تكرّس وتذكّر في الآن نفسه بالمبادئ الأساسية للمجتمع. إن طقوس المرور التي تترجم تغيير الهوية الاجتماعية بالنسبة إلى الفرد (الانتقال من حالة الطفل إلى حالة البالغ هي بشكل خاص حاسمة بالنسبة للرجال) تكون محل جملة من الاحتفالات ذات أهمية قصوى من المجموعة: يتعلق الأمر، في هذه المناسبة، ضمان استمرار المجتمع. لقد انتبه الأنثربولوجي الفرنسي بيار كلاستر (1934 – Pierre Clastres(1977 إلى طقوس قبيلة هندية أمريكية (الغاياكي(*) les Guayaki) وأكّد أنهم يصاحبونها عادة بتعذيب يمتد إلى غاية فقدان المراهق للوعي، حيث يصير من الآن فصاعدا مندمجا في عالم البالغين. سبب هذا العنف يبرر عن طريق الواجبات التي ينبغي أن يخضع لها الشاب البالغ حتى يستبطن الواجبات الاجتماعية التي تضغط الآن عليه.

> **"هذا هو إذن السر الذي تكشف عنه المجموعة للفتيان في عملية التدريب (المُسّارة): "أنت واحد منا. كل واحد منكم شبيه بنا، كل واحد فيكم مماثل للآخرين. تحملون اسما واحدا ولن تغيروه. كل واحد منكم يحتل بيننا نفس**

(*) **الغياكي Guayaki** حرفيا الكلمة تعني "الفئران الشرسة" وهي اسم لمجموعة قبائل هندية في أمريكا الجنوبية وبالضبط في شرق البراغواي يقطنون بالغابة الاستوائية لغتهم قريبة من لغة الغراني guarani (لغة أمريكوهندية موجودة في عدة دول بأمريكا الجنوبية الأرجنتين، البرازيل، البراغواي وبوليفيا يتحدثها قرابة ستة ملايين شخص ومعترف بها رسميا) ويسمون أيضا أشيه وغاياكي هو الاسم الحربي. [المترجم]

المكان ونفس الموقع: عليكم المحافظة عليهما. لا أحد منكم أقل منا، لا أحد منكم أكبر منا. ولا يمكنكم نسيان هذا. ستذكركم نفس العلامات التي تركناها على أجسامكم بذلك، باستمرار."[1]

هذه الممارسات، التي فقدت كثيرا من فائدها (منفعتها) الاجتماعية مع التعقيد المتنامي للمجتمعات الإنسانية ناتجة عن عملية تقسيم العمل (وهو ما ينص عليه بروز الهيئات المختصة، مثل المدرسة، المكلفة بنقل قواعد الحياة الاجتماعية)، تبقى أحيانا في بعض الفضاءات الاجتماعية الراغبة في إقامة تماسك قوي بين أعضاء المجموعة. إن حفل التزريك[*] bizutage الذي تأسس في الأقسام التحضيرية للمدارس الكبرى يرجع، على سبيل المثال، لتذكير "الجدد"، بوجود تراتبية (بين التلاميذ والأساتذة لكن أيضا بين التلاميذ بالنظر لأقدميتهم في المؤسسة) وأحيانا كذلك تسجيل ذلك على "أجسامهم" مع إبداء تضامن بين أعضاء فئة عمرية، مكلفين بدورهم نقل "روح المجموعة"، أي المبادئ التي تحكم المؤسسة.

- كل عملية تنشئة اجتماعية ترافقها عقوبات موجهة إلى تقييم السلوكات تبعا للأهداف المحددة مسبقا. بهذا نميز **العقوبات السلبية** (من نظرة المعترض على عقاب من يتمرد)، من **العقوبات الإيجابية** (الابتسامة المشجعة على المكافأة) التي تعمل على تثبيت الحدود لما "يمكن القيام به". في هذه الظروف، فإن طفلا يكون قد عاش مطولا خارج كل مجتمع بشري يجهل الأساسي من قواعد الحياة الاجتماعية ويجب عليه، حتى ينمو "بشكل عادي" بين الرجال أن يكون، بدوره، ناشئا اجتماعيا: في هذا مثال مشهور قدمه فيكتور، طفل

(1) P. Clastres, *La Société contre l'État*, Paris, Minuit, 1974.

(*) التزريك bizutage هي مجموعة أعمال وممارسات، مباريات ومعاملات طقوسية ومفروضة، ترمز لاندماج شخص ضمن جماعة ما: طلاب، جنود، مهنيين، إلخ. هذا النوع من الممارسات كان عرضة لانتقادات كثيرة لا سيما من قبل وسائل الإعلام تبعا لبعض الحوادث الخطيرة والإهانات والإيحاءات العنصرية التي قد تتضمنها هكذا طقوس. حتى وإن لم تكن في ظاهرها كاشفة عن احترام سلطة قائمة فإنها تذكر من خلال الممارسة بالتراتبية على أساس الخبرة وبضرورة امتثال الجدد للقدامى. [المترجم]

مهجور في القرن التاسع عشر منذ حداثة سنه في غابة الأفـيرون Aveyron والذي، آواه فيما بعد طبيب، توجب عليه بالتدريج أن يتعلم جميع الإيماءات الأولية للحياة في المجتمع، وعلى وجه الخصوص اللغة حتى يتسنى له التواصل مع الغير[1].

◄ لا يتحقق إذن تلقين القواعد الاجتماعية أبدا "طبيعيا" إنمـا يسـتوجب تدخل مختلف الهيئات الاجتماعية التي تساعد على "نجاح" العملية. فالخلية العائلية في معظم الحالات هي العامل الأول في التنشئة الاجتماعية: يُشكّل الطفل تـدريجيا هويّته الخاصة بمرجعية إلى النموذج العائلي، بالخصوص اتجاه أبيه وأمه. في المجتمـع الحديث، لم تعد التربية حكرا على دائرة الأسرة بل متقاسمة مع **المدرسة**. هذه الهيئة تحتل اليوم مكانة حاسمة لأن التلميذ يتمدرس أكثر فأكثر باكرا (دخول إلى مدرسة الحضانة نحو سن الثالثة وانتقال سابق محتمل من الروضة) ولأطول مدة مع تمديـد لفترة الدراسة. عامل آخر في التنشئة الاجتماعية، مرتبط بـ "تمديد الشبيبة" (بمعنى الدخول في الحياة النشيطة وتكوين الزوج (الأسرة) يأتيان في وقت لاحق اليـوم): **مجموعة الأزواج**.

إن تمديد الخبرة المدرسية (ظاهرة مميزة أكثر بالنسبة للفئـات العليـا والـتي تنـزع بالتدريج إلى التعميم على مجموع الأوساط الاجتماعية) يزيد بشكل كبير من الزمن المقضي بين الأطفال وخاصة بين المراهقين، في حين أن المراقبة المباشـرة الممارسة من طرف البالغين تنـزع إلى الإضعاف (تطور العمل النسـوي ولكـن بالخصوص المزيد من الاستقلالية الذاتية الممنوحة للمراهقين داخل الأسرة). هناك جملة من الممارسة الاجتماعية (من بينـها الرياضـة، الاسـتماع للموسـيقى، التسلية...) تساهم في ربط المراهقين ببعضهم. تتم التنشئة الاجتماعية إذن في المقام الأول عن طريق الانتماء إلى فئة عمرية التي تحمل في الغالب على عدد معين مـن

---

(1) فيلم فرانسوا تريفو François Truffaut، *الطفـل المتـوحش* (1970) *L'Enfant sauvage*، يحكي هذه القصة حسب نص فيكتور دو لافيرون Victor de l'Aveyron لـ جان إيتار Jean Itard.

السلوكات ومن "الأذواق" المشتركة. أخيرا، ينبغي التنبيه ودون الهمام مستنفذ، أن دور **وسائل الإعلام** في عملية التنشئة الاجتماعية (حيث لا يتوقف التأثير من جهة أخرى على التنشئة الأولية) يميل إلى الزيادة بشكل كبير مع، خاصة، مكانة التلفزيون في البيت - ولكن أيضا الآن مع التكنولوجيات الجديدة، مثل الإنترنت - والتأثير الذي يمكن أن تمارسه من خلال المعايير الاجتماعية التي تمررها أو تنشرها (كالنتائج الملاحظة على موضة الملبس والاستماع للموسيقى المراهقين، على سبيل المثال).

2- لا تتم عملية التنشئة الاجتماعية دوما من دون صدامات

◀ **عندما يتعرض الفرد إلى قواعد متضاربة من طرف الهيئات المختلفة للتنشئة الاجتماعية، فإن هويته تصبح محل مراجعة وتشكيك.** إحدى الحالات الكلاسيكية للصراع الهووي والمرتبط بخصومة هيئتي التنشئة الاجتماعية يوضح بواسطة التناقضات الممكنة بين توقعات المدرسة وتوقعات الأسرة، خصوصا المتهمة في الأوساط الشعبية. ريتشارد هوغارتRichard Hoggart سلط الضوء في مؤلفه، *ثقافة الفقير* (1957) *La Culture du pauvre*، الاقتضاءات المضادة التي على الطالب الحاصل على منحة من أصول شعبية أن يفي بها والواجب المفروض عليه - باعتباره منقسما بين عاملين اجتماعيين - أن يعيد باستمرار صياغة هويته الاجتماعية.

> **"ينتمي الطالب الحاصل على منحة إلى عالمين ليس بينهما تقريبا شيء مشترك، ذلك الخاص بالمدرسة وذلك الخاص بالبيت. عندما يصل إلى الثانوية، يتعلم بسرعة استعمال لهجتين، وربما حتى تشكيل شخصيتين والامتثال بالتناوب إلى قانونين ثقافيين. إذ يكفي التفكير في قراءاته: يرى لديه مجلات - التي يقرؤها فضلا عن ذلك بعناية والتي لا يتحدث عنها أبدا في المدرسة؛ في المدرسة يدرس في كتب لا يسمع عنها شيئا في بيته. عندما يحمل معه كتب القسم إلى المنزل، فهذه تبدو في غير موضعها إلى جانب كتب الأسرة، على الرف العائلي وحيث تكون للجميع أثر أدوات مجهولة وغير منطقية"**

يوضح هوغارت أن الطالب الممنوح سيكون متجاذبا في الجــزء الكــبير مــن وجوده بين عالمين غير منسجمين وأن فض هذا الصراع الهووي لا يتضمن حــلا: إذا كان مساره الاجتماعي يبعده عن محيطه الأصلي (الجوار المقام، بواسطة عالم المدرسة، مع عالم "المثقفين" يدفع إلى وضعية اجتماعية أسمى من الوضعية الأصلية)، فإن تنشــئته الأولية، التي شكلت باستمرار عددا مهما من "أذواقه"، كثيرا ما تعود إلى ذاكرته.

إذن التنشئة الاجتماعية هي عملية تؤثر بشكل دائم في الفــرد لأن كيفيــة إدراكه العالم الاجتماعي تتوقف عليها؛ لا يتعلق الأمر بظاهرة مشتركة لأنه يظــل بشكل كبير مختلف من وسط اجتماعي إلى آخر.

ب - التنشئة الاجتماعية في النظريات

التنشئة الاجتماعية عملية مركزية في الحياة الاجتماعية ولهذا فهي تعد موضــوع تساؤل حيوي عند السوسيولوجيين. فبأية طريقة يتمكن المجتمع (أو بأكثر تدقيق بعض مؤسساته، بعض الفاعلين الاجتماعيين) من "طبع" الأفراد على نحو دائم؟

1- أول تفسير تقدمه المدرسة الثقافويــة وبوجــه خــاص رالــف لينتــون Ralph Linton وكذا التيار الوظائفي بواســطة روبــرت ك. ميرتــون Robert K. Merton

يصر هؤلاء الكتّاب على الطريقة التي يعيّن بها المجتمع موقعا خــاص للفــرد (**الوضع** الاجتماعي) الذي يحض على جملة من **الأدوار** الاجتماعية المناسبة. توجد إذن علاقة مباشرة بين الدور والوضع، وهو ما يعني أن الوضع الذي يكون الفــرد يحدد مدى أدواره الاجتماعية وكذا الكيفية الدقيقة التي يجب عليه أداؤها: فهــو مدعو إلى التصرف بالنظر إلى توقعات الغير التي تحدد مختلــف الفئــات للــدور الاجتماعي. بهذا فرب أسرة "محكوم" بمجموعة من القواعد الاجتماعية الموجــودة مسبقا والتي تحدد بدقة كيفية التنفيذ "الصحيحة" هذا الدور: فــأن يعتــبر "زوج جيد" أو "أب جيد" يعني تبني سلوكا لا مأخذ عليه (أن يكون مثــالا يحتــذى، إظهار سيطرة أو نفوذ، تأمين حاجات الأسرة...).

◄ **فنفس الدور الاجتماعي يمكن أن يثير توقعات مختلفة تجعل السلوك حرجا للغاية:** على سبيل المثال، يتوجب على المحامي أن يرضي، في الوقت نفسه، زبائنه، شركاءه، زملاءه.... فضلا عن ذلك فرد يمارس، تعددا للأدوار الاجتماعية تقريبا منسجمة فيما بينها، مرتبطة بمجموع الأوضاع التي يحوزها: نفس الشخص يمكن أن يكون، في الآن نفسه، رب أسرة، إطار بالبنك، موسيقي هاوي، مستشار بلدي... بعض المواقف قد تبدو متناقضة وينتج عنها تضارب أدوار: فالمحامي، الفائز بعهدة انتخابية قد يضطر للدفاع عن أحد خصومه السياسيين...

- إن التحليل بلغة الأدوار والأوضاع يضفي مع ذلك تجانسا كبيرا على الدور الاجتماعي (أليست هناك عدة طرائق لآداء دوره كرب أسرة؟) وإقامة علاقة شبه أوتوماتيكية بين مجموع الأدوار والوضع الاجتماعي. بعبارة أخرى، وحسب هذه المقاربة، يجبر الفرد على التصرف باعتباره منفذا سلبيا للأدوار المحددة سلفا من قبل آخرين، كما يجب ومع ذلك عليه أن يتحمل "بشكل صحيح" المكانة التي آلت إليه في المجتمع.
- هذه النظرية كانت موضوع انتقادات عدة علقت هذه الرؤية الاختزالية للغاية في تصور الكيفية التي يمارس بها الأفراد عمليا الأدوار المفروضة عليهم.

2- **بالنسبة إلى التفاعليين وخاصة السوسيولوجي والفيلسوف الأمريكي جورج هربرت ميد (1863 – 1931) George Herbert Mead، فإن الدور الاجتماعي ليس مختزلا في مكانة محتلة ضمن التراتبية الاجتماعية.**

◄ **كل دور اجتماعي هو نتاج للتفاعل الاجتماعي:** تنتج هوية الفرد، كما صرح ميد، في كتابه، الذهن، الأنا والمجتمع (1934)*L'Esprit, le Soi et la Société*، من علاقة مع الغير. فالفرد ينشأ اجتماعيا عبر **أخذ دور**، أي عن طريق ميكانيزم يتضمن تبني وجهة نظر الغير مع الأخذ بعين الاعتبار الأثر الذي يمكن يقع عليه: وهكذا هو الحال، مثلا، عن الطفل الذي يبدأ بتشكيل شخصيته بتقليد مواقف الآباء، لتي أقيمت **كغير دلالي autrui significatif**. شيئا فشيئا يستبطن الطفل

القواعد اللعبة الاجتماعية و"الغير" الذي يدخل معه في تفاعل يصبح ما يسميه ميد Mead **الغير المعمم**، بمعنى تجريد وليس فقط كائن مرتبط به شخصيا.

> **"على سبيل المثال، في استبطان المعايير، يوجد تدرج يبدأ من "أمي غاضبة علي الآن" إلى "أمي غاضبة مني دوما كلما قلبت حسائي" (...) تظهر المرحلة الحاسمة عندما يعترف بأن الجميع ضد حماقاته، وأن المعيار قد تم تعميمه بالكيفية الآتية: يتوجب عليه ألا يقلب حسائه[1]."**

يبني الفرد تدريجيا عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية هويته الخاصة، وهو ما يصطلح عليه ميد بالذات. يتعلق الأمر إذن بعملية **البناء الاجتماعي للواقع** لأن هذا ليس في الأصل "معطى" للفرد إنما يبدو له في نهاية الأمر كواقع موضوعي عندما استبطن جملة القواعد الاجتماعية. والحالة هذه يفهم المجتمع ابتداء من مخطط عام وغير شخصي يتيح الحفاظ على علامات في علاقاته بالغير، وهو ما يسميه بيتر بيرغر Peter Berger وتوماس ليكمان Thomas Luckmann بـ **النمذجة:** بالتعرف على هذا الشخص أو ذاك مثل جار، خباز أو صديق حميم، يعلم الفرد كيف يسلك في الحياة اليومية حتى يتم التفاعل "بصفة عادية". هذه النمذجات توجه تمثلات المجتمع التي أعدها الفرد: فهو يستند عليها ليحدد سلوكه. في بعض الحالات، يمكنها أن تغطي تجريدات من قبيل "حقوق الإنسان" أو "مستقبل الكوكب" والذي، بالطبع، لا يدخل أبدا في علاقة مباشرة مع الفرد ولكن لن يشكل دلالات أقل أهمية في نظره ولهذا السبب تشارك في واقعه اليومي.

◄ **إن الدور الاجتماعي لا يفرض إذن من "الخارج" على الفرد إنما ينجم تملك تدريجي يحتفظ أثناءه الفرد بجزء نشيط.** لقد أوضح إيرفينغ غوفمان هذه الظاهرة باقتراح تحليل مأساتي للحياة الاجتماعية. بالنسبة إلى هذا الكاتب، تتماثل الحياة الاجتماعية، بكيفية معينة، مع مسرح حيث يكون مختلف الأفراد ممثلين يؤدون أدوارا ويقومون بتمثلات أمام جمهور. إن الفائدة العظمى لهذا التناظر هو

---

(1) P. Berger, T. Luckmann, *La Construction sociale de la réalité* (1966), Paris, Méridiens Klincksieck, 1986.

جلب الانتباه حول الطريقة التي يعدل بها فردان، أثناء وضعيات ملموسة يواجهاها (وهو ما يسميه غوفمان **تفاعلات وجها لوجه interactions face à face**)، بشكل متبادل سلوكاتهما بالنظر لتوقعاتهما المتبادلة. لا يتوقف إذن الأفراد عند التطبيق الآلي لدور إنما "يلعبانه" (تحت معنى مزدوج، مسرحي واستراتيجي) ويعيدان تعريفه في كل سياق من التفاعل. يمكن للأفراد في بعض الحالات أخذ **مسافة معينة إزاء دور** لن يعمل أبدا على إلغاء كلي لهامش مناورتهم.

- بدراسته، ضمن كتابه *الملاجئ* (1961)*Asiles*، للكيفية التي تنتظم بها الحياة الاجتماعية داخل مستشفى للأمراض العقلية، لاحظ غوفمان أن المرضى يستعملون جملة من الاستراتيجيات الموجهة إلى امتلاك إطار حياتهم الجديد. وقد تبين له، بملاحظته اليومية لسلوك المرضى، أن هؤلاء وبعيدا عن تطبيق الميكانيكي لأوامر أعضاء المؤسسة، يطورون تدريجيا أدوارهم الاجتماعية. بهذا ميّز غوفمان طريقتين للفعل في مستشفى الأمراض العقلية: **التكيف الأولي** ويتضمن قبول الاقتضاءات أعضاء المؤسسة (قبول العلاج المقرر من طرف الطبيب، احترام النظام...)، إذن "لعب اللعبة"، وهو ما كانت نتيجته عددا معينا من ("الدفعات" من طرف أعضاء المؤسسة يمنح الحق في جملة من الامتيازات) **والتكيف الثانوي الذي** يرجع إلى "استعمال وسائل ممنوعة، أو بلوغ غايات غير قانونية (أو الاثنين معا) وبالتالي تحويل الأفكار المسبقة للمؤسسة المتعلقة بما ينبغي فعله أو تلقيه، وبالتالي، لما يجب أن يكون عليه". فباللجوء إلى تكيف ثانوي، يبتعد "المنعزل" عن الدور المحدد له من قبل المؤسسة فـ "يستغله" لمصلحته. يروي غوفمان هكذا أن العروض الخيرية التي يتوجب على المرضى حضورها حتى يبرزوا اندماجهم في المؤسسة (تكيف أولي) تمثل في الواقع عبئا بالنسبة للغالبية منهم. إذن فلا يحضروا إلا دقائق قبل نهاية العرض حتى لا يضيّعوا توزيع الحلوى والسجائر التي يختتم بها دوما هذا النوع من الحفلات (تكيف ثانوي).
- يقدم غوفمان تعددا من الأمثلة التي تشهد على وجود حياة سرية داخل المؤسسة الشاملة: من المساحة المحجوزة والتي تكون البيت وحيث

تخفف الرقابة الممارسة بشكل كبير إلى غاية تبادلات السلع والخدمات (سجائر، هدايا...) أقيمت بين المرضى ولكن في بعض الأحيان أيضا بين مرضى وأعضاء الفريق العامل. فأعضاء المؤسسة يسمحون بهذه الحياة السرية لأنه الرقابة الدائمة تبيّن، عمليا، أنها غير قابلة التحقيق ولكن أيضا عديمة الجدوى ذلك أن التكيفات الثانوية لا تهدد الأساس نفسه للمؤسسة.

- بهذا بيّن غوفمان أنه في سياق آخر حيث يتم تقليل هامش فعل الفرد إلى أدنى مستوى (فمن بين مشاريع المؤسسات الشاملة التكفل التام بالفرد الذي سيعاد تشكيل شخصيته وفقا لاقتضاءات المؤسسة)، يظل هذا "فاعلا" يتطور بالتأكيد، في إطار ضاغط بقوة لكنه لا يعني أنه مجرد بهذا القدر من كل مصدر للدفاع عن هويته الاجتماعية.

3- إن المجتمع حالما يصبح واقعا يفرض نفسه، بكيفية بديهية، على فرد يتصرف في مجتمع وعن طريق أفعاله، يساهم في استمراره.

لقد ألح بيار بورديو بوجه خاص على هذا المظهر المزدوج للواقع الاجتماعي، المتوضّع (عندما يتجلى كـ "شيء"، خارج عن الفرد) ومستبطن (عندما يتملكه). هذا الكاتب إذن صاغ مفهوما ليعكس هذا البعد المزدوج: الاستعداد. (المظهر) فهذا المفهوم القديم، المستخدم من قبل من طرف الفلاسفة الإغريق، يشير لدى بورديو إلى الحركة المزدوجة والتي عبرها يفرض نفسه الواقع الاجتماعي في الأذهان وفي الأجسام (استبطان الخارج) وكذا أشكال البناء بواسطة الممارسات الاجتماعية المختلفة (تخارج من الداخل).

◄ هكذا يمكن للاستعداد (الهابتوس) *habitus* أن يعرف بوصفه نسقا "من الاستعدادات الدائمة والقابلة للنقل، بنيات مُهيكَلة مستعدة سلفا أن تعمل باعتبارها مُهيكِلة، أي باعتبارها مبادئ مُولّدة ومُنظّمة للممارسات والتمثلات التي يمكن تكييفها لهدف ما دون افتراض قصد واع بالغايات والتحكم المعبر عن

العمليات الضرورية لبلوغها"[1]. إذا ما فضلنا تعريفا آخر أكثر بساطة للمظهر، سنجد بورديو يستعمل أيضا صيغة "الجوقة من دون قائد فرقة الجوق". إن أهمية هذا المفهوم تكمن، في الواقع، في تجاوز التعارضات الكلاسيكية من نوع: ثقل البنيات/حرية الفاعل. يبين بورديو، بالفعل، من خلال مفهوم المظهر، أن الفرد، بحكم الموقع الذي يحتله في الفضاء الاجتماعي، يستبطن رؤية معينة للمجتمع الذي يفرض عليه دائما: وهو ما يسميه نسق من الاستعدادات. هذه الاستعدادات تولد، بدورها، عدد معينا من الممارسات الاجتماعية المتلائمة الواحدة مع الأخرى (من اختيار الزوج، إلى النشاط المهني، مرورا بالآراء السياسية...) التي تكتسب بالتدريج، بالنسبة للفرد، قوة البداهة. بعبارة أخرى، فإن الفرد حالما تتم تنشئته الاجتماعية (أي عندما يتكون مظهره)، لا يطبق ميكانيكيا دوره (لأن الأدوار الاجتماعية تختلف كثيرا بحسب مظهر من يعمل على تأديتها)، ولا يحدث أن يكون "عقلانيا" (لأن الاستراتيجيات التي يستعملها مرتبطة أشد الارتباط بمظهره: إذن يوجد العديد من التعاريف للمصلحة، مثلا، بقدر ما هناك من للمظاهر المكونة).

- إذن لا يختزل الاستعداد (الهابتوس) في مجرد برنامج (لنفكر، مثلا، في برنامج معلوماتي)، لأنه، إذا كان الفرد نوعا ما مبرمج بمظهره، فهذا الأخير يخضع لتحولات طوال المسار الاجتماعي للشخص. إن الاختلال يمكنه، على سبيل المثال، أن ينتج (وهو ما يصطلح عليه بورديو **بأثر التباطؤ أو التخلف l'effet d'hystérésis**)، بين البنية الاجتماعية والبنية الذهنية، عندما، مثلا، تتطور الأولى أسرع من الثانية وأن الاستعدادات المستبطنة من طرف الفرد تعكس حالة سابقة للمجتمع. لنفكر ببساطة في العبارة الآتية: "فيما مضى كانت أفضل بكثير!"، التي يتلفظ بها مرارا شخص ذو سن معينة، والذي، يعيد التفسير من زاوية سوسيولوجية، يعني بكل بساطة أن الاستعدادات المستبطنة قد تم تعديلها في حالة معينة للبنية الاجتماعية (الذي يعادل ما كان في شبابه، أي في الوقت الذي تشكلت فيه هذه العادة). فهذا قد تحول كثيرا

(1) P. Bourdieu, *Le Sens pratique*, Paris, Minuit, 1980.

حيث أن البنيات الذهنية للشخص الذي أظهر ارتباكا إزاء "لعبة" لم يتحكم في "قواعدها". في الواقع، حالما تستبطن التجارب الأولى، لا يتطور المظهر إلا ببطء وجزئيا، وهو ما يميل إلى إعطاء "وحدة" معينة وكذا "تماسكا" معينا للأحكام الاجتماعية ولممارسات الأفراد في المجتمع.

- 3 -

الضبط الاجتماعي، المعايير والانحراف
احترام أو خرق القاعدة؟

أ - الضبط الاجتماعي

1- يمكن أن يعرف الرقابة الاجتماعية باعتبارها مجموع الاستعدادات المستعملة في المجتمع لضمان التماسك الاجتماعي وضمان احترام القواعد الموضوعة.

إن جل المعايير الاجتماعية، أي قواعد السلوك المحددة في مجتمع معين وحيث يعاقب من ينتهكها، تنتقل أثناء عملية التنشئة الاجتماعية.

◄ **تمارس الرقابة الاجتماعية على مستويات مختلفة** في المجتمع (من الأم التي تراقب ابنها إلى فحوصات الهوية التي تقوم بها قوات الشرطة)، بكيفية منتشرة (النظرة الناقدة لمجهول) أو من طرف هيئة متخصصة (الحكم المعلن من قبل محكمة).

- هذه الأنواع من الرقابة الاجتماعية المتنوعة للغاية تحيل كذلك إلى وجود معايير مختلفة. هكذا يمكن تمييز **المعايير الاجتماعية** من **المعايير القانونية**. الأولى تحدث ردة فعل الجسم الاجتماعي بأكمله (على غرار قبيلة تقصي أحد أعضائها) أو بصورة اعم مجموعة اجتماعية إزاء من لم يحترموا معيارا، في حين أن الثانية تستوجب تدخل المؤسسات المختصة المكلفة بشرح قاعدة الحق والعمل على تطبيقها. إن وجود المعايير الموافق عليها قانونيا يفترض أن يجري عملية تقسيم عمل اجتماعي، وفقا لصياغة دوركايم، بمعنى تفاضل تدريجي للنشاطات الاجتماعية والتي من نتيجتها بروز أجهزة مختصة مكلفة

بتحديد القواعد المشتركة والسهر على احترامهم. فلا يوجد إذن نظام قضائي مختص (محاكم مختلفة، قوانين تجمع النصوص التشريعية، خدمة عمومية للعدالة...) إلا في المجتمعات التي ترتكز على نموذج التضامن العضوي.

- في مجتمعنا، تتعايش المعايير القانونية مع المعايير الاجتماعية. المعايير القانونية هي، في الواقع، معايير اجتماعية (فهي معترف بها من طرف المجتمع، المعتمدة باسمه...) والتي تخضع لمعالجة مختلفة: ينجم عن انتهاكها رد فعل الهيئة المختصة (العدالة) المكلفة بإقرار عقوبات مؤسسة (إدانة) في حين أن المعايير الاجتماعية الأخرى، الأكثر عددا، تثير ردود أفعال إيجابية منتشرة (ابتسامات، تشجيعات...) أو سلبية (انتقادات، إهانات...).
- في دراسة تتصل بالعلاقات بين السكان في ضاحية لمدينة صناعية إنغليزية، يقدم إلياس نوربرت[1] توضيحا لطريقة الضبط الاجتماعي، من خلال مثال كثرة الكلام. لقد لاحظ أن السكان المقيمين، وغالبيتهم من أصول عمالية، ينقسمون إلى فئتين متمايزتين بوضوح: فبينما أن هاتين المجموعتين متقاربتين على أكثر من مستوى (أنواع الوظيفة، أماكن العمل، المداخيل...)، إلا أنهما تتباينان عن طريق نمط الحياة (معاملات الجوار، العلاقات بين الأجيال، علاقات بين الجماعات...). إن الفرق الرئيسي بين الجماعتين يكمن في الواقع حول أقدمية الإقامة في الضاحية: المجموعة الأقدم تدافع عن وحدها، التي ترى أنها مهددة، بقدوم "متسللين" وذلك بالعمل على نشر تمرير القيل والقال بخصوصهم. يتعلق الأمر، بالنسبة لهذه المجموعة "المقيمة"، بواسطة هذه التقنية للضبط الاجتماعي، المحافظة على تفوقها على المجموعة "الجديدة" حتى تعي هذه الأخيرة دونيتها الاجتماعية.

(1) N. Elias, «Remarques sur le commérage», *Actes de la recherche en sciences sociales*, no 60, 1985 et N. Elias, J. L. Scotson, *Logiques de l'exclusion* (1965), Paris, Fayard, 1997.

"غالبا ما يكون بإمكان أفراد نــزع سلاح أو إسكات آخرين يكونون علــى خلاف معهم، أو محاربتهم برميهم بلفظ جماعي مشين أو إشاعة مهينة، شريطة أن يكونوا هم أنفسهم منتمين إلى مجموعة تطالب بنجاح وضع أعلى من ذلك الذي لخصومهم."

يبين جيدا هذا التحليل أن الضبط الاجتماعي لا ينطبق آليا، حسب النموذج الكلاسيكي الذي يتنبأ بتطبيق مباشر للعقوبة في حالة انتهاك القاعـــدة. بالفعـــل، فليس الضبط الاجتماعي مجرد "آلية". فلا ينبغي تصوره انطلاقا من العلاقات التي توحد المجموعات الاجتماعية: عندما تكون المجموعتان متنافستين، لـــذلك يمكـــن استخدامه كأداة تجريد "الخصم" من أهليته.

◄ **إذن الضبط الاجتماعي وكيفياته مـــرتبط ارتباطـــا وثيقـــا بالســـياق الاجتماعي الذي يعمل فيه.** وهو ما حاول تبيانـــه الفيلســـوف والسوســـيولوجي الفرنسي ميشال فوكو (1926 - 1984) Michel Foucault بإعادة رسم في مؤلفه *المراقبة والعقاب* *Surveiller et punir*(1975)، لظروف نشأة المؤسسات المكلفـــة بغرس النظام (السجون، المستشفى، الجيش، المدرسة...). وهـــو بهـــذا يؤكـــد أن للسجن الحديث تاريخ: مرادف لتخفيف العقوبات، إنه يتوج نظاما عقابيا منتظمـــا حول الحرمان من الحرية والذي تأسس في النصف الثاني من القرن الثـــامن عشـــر وخلف نسقا قائما على العقاب الجسدي **النظام القديم**. إن أنسنة العقوبة ممثلـــة في حبس يتطابق أيضا، حسب هذا الكاتب، مع عقلنة التقنيات الرقابة التي تتماثـــل، في الواقع، مع عملية واسعة **لطب العظام الاجتماعي orthopédie sociale**. في الواقع تتأقلم التكنولوجيات الاجتماعية مع اقتضاءات الزمن: وهو مـــا يـــدعوه فوكـــو الانغلاق الكبير والذي غايته، ضمن سياق نمو ديمغرافي الذي يؤجج المخـــاوف، في تدجين ساكنة يحتمل أنها "خطيرة" مكونة من منحرفين، مجانين، مرضى... إن الحل المتصور يتضمن إذن إنشاء فضاءات مغلقة تسمح بجعـــل الأفـــراد في الآن نفســـه "طيّعين" و"مفيدين" للمجتمع.

2- لا تفرض المعايير الاجتماعية نفسها بنفسها: بل تتطلب عددا معينا من الفاعلين الاجتماعيين الذين، باستيلائهم على المعيار، يذكرون المجموعات المحلية بوجودهم.

◀ **إن معيارا اجتماعيا لا يستدعيه أحد يهجر نهائيا:** لنتذكر تطور دليل آداب السلوك وكذا الابتسامات التي كانت تثيرها قراءة معايير اللياقة في القرون الماضية. إن الأنتولوجي برونيسلو مالينوفسكي (1884 - 1942) Bronislaw Malinowski، وهو يدرس سكان جزر تروبرياند Trobriand، صادف وأن حضر انتحار شاب، نتيجة عداوة عموم القرية له جراء عدم احترامه لإحدى القواعد الاجتماعية الأساسية للجماعة: زواج خارجي exogamie (بمعنى أمر اختياره لشريكة حياته خارج مجموعة القرابة، وهو المعيار الذي نتيجته الطبيعية وجود قاعدة مشتركة لكل المجتمعات البشرية: منع زنا المحارم). فقد لاحظ مالينوفسكي أمرا مذهلا:

> **لما علم الرأي العام بالجريمة، لم يشعر مطلقا بأية إهانة فلم يبد أي رد فعل مباشر: ولم يتحرك إلا بعد الإعلان العام عن الجريمة وعقب الشتائم التي أطلقها الجانب المعني ضد الجاني."[1]**

إن الشاب، المتهم بانتهاك قواعد الزواج الخارجي مع ابنة خاله لم تثر في بداية الأمر قط، موضوع رد التهمة. فأمر استبعاده عن المجموعة، والذي يتطابق اجتماعيا مع موته، لن يتكرر إلا عند اللحظة التي يبرز فيها شخص ما ويطالب بتطبيق القاعدة.

> **"إن عاشق الفتاة، بإحساسه شخصيا بالإهانة بفعل أنه مطرود، في الوقت الذي كان يأمل الزواج منها، تصور فكرة الانتقام. فبدأ بتهديد منافسه باستعمال السحر الأسود ضده، لكن هذا التهديد بقي من دون أثر، فقد أهانه ذات مساء علنا، باتهامه أمام كل الجماعة بزنا المحارم ورماه ببعض العبارات التي لا يتسامح معها أحد من الأهالي."**

---

(1) Cité par H., *Outsiders. Études de sociologie de la déviance* (1963), Paris, Métailié, 1985.

يظهر هذا المثال مثلما حتى في المجتمعات التقليدية (حسب دوركايم، وحيث يكون الاندماج الاجتماعي قويا بحكم التماثل الموجود بين مختلف أعضاء المجتمع، وهو ما يشكل فضلا عن ذلك أساس التضامن الآلي)، فإن المعيار الاجتماعي الذي يحقق الإجماع قبليا يتطلب تدخل الأفراد لتطبيقه أو مجموعات، على أكثر من صعيد، تشعر بأنها معنية بتطبيقه.

3- كما يؤكد على ذلك السوسيولوجيون التفاعليون، تنجم المعايير الاجتماعية عن عملية البناء الاجتماعي

◄ **إن المعايير الاجتماعية ليست "طبيعية"، إنها تمتلك فعالية بواسطة فعل الأفراد الذين، يزعمون، وضعها.** بمعنى معين، يمكن اعتبارها بأنها "مصنوعة". فالعالم الاجتماعي هوارد س. بيكر Howard S. Becker، في كتابه *المارقون* (1963) *Outsiders*، صاغ مفهوم **مقاولو الأخلاق entrepreneurs de morale** ليشير إلى المجموعات الاجتماعية التي تتكفل بتعميم قواعدهم الخاصة للسلوك، أي من يحاولون فرضها على مجموع أعضاء المجتمع. إن المسعى التفاعلي للإنتاج المعايير الاجتماعية هو تحليل ديناميكي بالقياس إلى أنه يتصور، ليس تطبيقا ميكانيكيا أو "قانونيا" للمعيار (من نوع، من يعتدي على القاعدة المشتركة فهو مدان) إنما مجموع العمليات الاجتماعية الضرورية لإقامته.

يعطي بيكر Becker مثال التشريع للماريخوانا المتبني في 1937 للولايات المتحدة والذي يمنع استعمال هذا المخدر. وأشار إلى أنه بخلاف حظر الكحول أو الأفيون، فإن الماريخوانا ليست محل اعتناء خاص من السلطات في السنوات التي سبقت تبنّي القانون. كيف يفسر إذن هذا التطور التشريعي المفاجئ؟ يُسلّط الكاتب الضوء على الفعل الحاسم لمؤسسة (مكتب المخدرات لوازرة المالية) الذي شنّ حربا حقيقية أخلاقية لصالح منع الماريخوانا. فقد تحول المكتب إلى مقاول أخلاق بإعداده لعديد التقارير الهادفة إلى تحسيس الإدارة الفيدرالية وتلك الخاصة بمختلف الولايات بـ "المشكلة" التي تمثلها الماريخوانا. وبالموازاة مع ذلك، قاد حملة جد هجومية اتجاه الرأي العام بإنذار الصحافة وبتزويدها بـ "مادة" للعديد من

المقالات. وفي نهاية الأمر شكل موضوع الماريخوانا "مشـــكلة مجتمـــع" حقيقيـــة وصارت موضوع نقاش في الكونغرس (برلمان الولايات المتحدة) أين تدخل أعضاء المكتب بوصفهم خبراء. إن مختلف المهن المستعملة للقنب المحظور حاليا، والـــذي يكون قد تعرض لضرر جراء منع الماريخوانا (مثل الصناعة الصـــيدلانية، مصـــنعي الزيوت وحبوب العصافير...)، حصلوا على رضا من الكونغرس وبإمكانهم متابعة نشاطاتهم دون ضرر. إحدى المجموعات الوحيدة القادرة على التعبئة ضـــد تـــبني النص هي مجموعة مدخني الماريخوانا. غير أن هذه المجموعة ليست فعلا واحدة لأنها لا تملك وجودا اجتماعيا واقعيا: بالفعل، لا يتعلق الأمر بمجموعة مصلحة منظمـــة إنما فقط بفرديات مشتتة وحيث أن سلوكها، فوق ذلك، محكوم عليه اجتماعيـــا باللاشرعية. هكذا تمّ تبنّي منع الماريخوانا من دون أية صعوبة بما أن ولا مجموعـــة معبأة لديها الوسائل للاعتراض على المقاولة الأخلاقيـــة لمكتـــب المخـــدرات. في حالات كثيرة، فإن وضع معيار اجتماعي جديد يثير كرد فعل تعبئة حقيقية (مـــن منع التدخين في الأماكن العمومية إلى تبني معايير إلزامية ضد التلوث...)، وهو ما يجعل من نجاح الحملة الأخلاقية أكثر عشوائية من ذلك بكثير[1].

- إن تحليل هوارد بيكر، والذي يمثل فائدة كبيرة في كونه قابلا للتطبيق على ميادين أخرى للحياة الاجتماعية (لنفكر فقط في حضور الممثلين المهنـــيين لجماعـــات الضغط (اللوبيات) في أروقة البرلمان)، توضح الأمر الآتي: إن تبنّي معيـــارا هـــو إجراء جد معقد مما نظنه عادة لأنه لا يوجد بالضرورة توافق مبدئي حول المعايير الاجتماعية (فالمصالح الاجتماعية المتضاربة يمكن أن تتعـــارض حـــول تعريـــف الأخلاق، الحق، المساواة...). بعبارة أخرى، إن تطبيق معيار يبقى خاضعا لجملة من التفاعلات الاجتماعية وحيث أن النتيجة ليست أبدا "معطاة" مقدما.

"في كل مكان وحيثما تنشأ معايير وتنفذ، يجب أن ننتظر تواجد أشـــخاص يبذلون قصارى جهدهم لربح دعم وتنسيق فعل بعض المجموعـــات، أثنـــاء

---

(1) Pour l'analyse de la construction du «fléau» de l'alcool au volant: Joseph Gusfield, *La Culture des problèmes publics* (1981), Paris, Economica, 2009.

استخدام وسائل الإعلام المتاحة للتأثير إيجابيا على الرأي. حينما لا يراعون دعما من هذا القبيل، فلا نتوقع سوى رؤية إخفاق مبادرهم."

إن عرض المعايير يجب إذن أن يتصور بالموازاة مع ظهور الانحراف، لأن هاتين الظاهرتين مرتبطتين مباشرة. إن أهم أثر يمكن أن يحدثه فرض المعيار هو الانحراف، على غرار مدخني الماريخوانا المنضوين في "مجموعة منحرفة" من مجرد تبني القانون: بهذا ينتقل المدخنون، فجأة، من الشرعية إلى اللاشرعية دون أن يعدلوا شيئا من ممارساتهم.

ب - الانحراف

1- يعني الانحراف مجموع السلوكات التي تبتعد عن المعيار الاجتماعي والتي، لهذا السبب، تصبح محل معاقبة

حاول عديد من السوسيولوجيين تحليل هذه الظاهرة الهامة ذلك أنها تمس بالأساس ذاته للتنظيم الاجتماعي.

◄ **إن إميل دوركايم، اهتم بشكل خاص بمسألة التماسك الاجتماعي وبإخفاقاتها، أجرى تحليلا للانحراف عبر مثال الجريمة.** فقد عرف الجريمة بوصفها فعلا يسيء لبعض المشاعر الجمعية الموهوبة ببطاقة وبقوة خاصتين وأن المجتمع يعاقب عليها بعقوبة نوعية. حلل دوركايم الجريمة كواقعة اجتماعية، كما فعل ذلك بالنسبة للانتحار (أنظر الجزء الأول، الفصل 1). وقد رأى، على العكس من غابريال تارد، بأن الجريمة ظاهرة عادية وليست مرضية. تساءل دوركايم بوفاء لمنهجه (معالجة الوقائع الاجتماعية وكأنها أشياء)، حول أسباب استمرار الجريمة وطوّر ثلاث أدلة لتعزيز أطروحته.

الجريمة ظاهرة عادية لأنه لا يوجد مجتمع بشري دون جريمة: فالمشاعر الجمعية التي تسيء إليها الجريمة ليست بنفس الشدة لدى مختلف أعضاء المجتمع، وخاصة أن عملية تقسيم العمل الاجتماعي أفضت إلى إضعاف الضمير الجمعي.

لن يكون ممكنا تعريف عام للجريمة بما أن هذه الأخيرة متغيرة للغاية من مجتمع إلى آخر وحسب المراحل: ففي سلوك ما (ليكن الإجهاض) يمكن أن

يوصف بالجريمة في وقت ما ثم يصبح بعد ذلك قانونيا. فبعض الأفراد بانتهاكهم لمعيار لا يفعلون سوى "الإعلان" عن القاعدة المستقبلية: يأخذ دوركايم مثال سقراط، حكم عليه بالإعدام لعدم احترامه التقليد.

أخيرا، الجريمة تؤدي، وظيفة اجتماعية هامة: من الضروري لأنه بمعاقبة المجرم، فإنه يثير رد فعل اجتماعي يعمل على إحياء الضمير الجمعي (المجتمع يلتحم مجددا حول قيمه المشتركة بإدانته لعدد معين من التصرفات).

بهذا يوضح دوركايم أن الجريمة، وبعيدا عن كونها فحسب قضية فرد و"صدماته النفسية"، تشكل ظاهرة من خلالها يتجلى المجتمع بأكمله.

◄ **يتابع دوركايم متسائلا بأكثر تحديد حول خصوصيات السلوكات المنحرفة داخل المجتمع الصناعي.** وقد عقد صلة بين الأشكال الجديدة للانحراف والانتقال إلى التضامن الآلي، خاصية المجتمعات التقليدية إلى التضامن العضوي الذي يسود في المجتمعات الحديثة. بالنسبة إلى دوركايم، فقد تزامن تقسيم العمل مع زيادة للنزعة الفردية لأن الضمير الجمعي الذي يوحد أعضاء المجتمعات التقليدية ترك شيئا فشيئا المكان إلى تنوع الضمائر الفردية. إن ضعف التنظيم الاجتماعي الذي يميز المجتمعات في طور التحول (مثل، المجتمع الفرنسي في نهاية القرن التاسع عشر) كان من أهم أثاره إفساد تماسكه، وهو ما وضحه دوركايم عبر مفهوم **اللامعيارية (الفوضوية) anomie** غياب القوانين بالمعنى الاشتقاقي، اللامعيارية (الفوضوية أو اللانظامية) تعني عند دوركايم إضعاف تأثير المعايير الاجتماعية على السلوكات الفردية. إنه يتحدث بهذا عن انتحار فوضوي (أنظر الجزء، الفصل 1) ليميز زيادة الانتحارات المرتبطة باختلال الحياة الاجتماعية: فمع تلاشي الانتظامات التقليدية، يوجد الأفراد في وضعية حيث لا تكون فيها رغباتهم محدودة من طرف المجتمع. بهذا يفقدون معالمهم الاجتماعية، والتي منها تطور السلوكات يشهد على عدم التنظيم الاجتماعي مثل الانتحار، الجريمة... في مؤلفه، *في تقسيم العمل الاجتماعي* (1893) *De la division du travail social*، أكد دوركايم على العلاقة الموجودة بين الفوضوية وعملية التقسيم الاجتماعي التي تؤدي إلى زيادة النزعة الفردية. إن أهم

خطر لتقسيم العمل الاجتماعي يكمن في غياب العلاقات ومن ثم التضامن بين مختلف المستويات التراتبية للتنظيم (مؤسسة، إدارة...) في حين أن الحياة المهنية تصير بـــارزة بحق في المجتمعات الحديثة: وهكذا يمكن أن تفضي إلى عديد مـــن صـــور الانعـــزال الاجتماعي. لهذا السب عقد دوركايم آمالا كثيرة في المجموعة المهنية (الـــتي، حســـبه، ينبغي أن تجمع كل العمال والمستخدمين) انطلاقا منـــها يجـــب أن تنـــتظم الحيـــاة الاقتصادية لأجل ضمان وظيفة تنظيم اجتماعي لتعمل كوسيط بين الدولة والأفراد.

◄ **يستخدم السوسيولوجي الأمريكي روبرت ك. ميرتون Robert K. Merton بدوره، في تحليله للانحراف، مفهوم الفوضوية الذي صاغه دوركـــايم.**

لا يتخذ ميرتون، من الفرد نقطة البداية، إنما البنية الاجتماعية التي، بحسبه، تسمح بتحليل الانحراف. هكذا يميز التطلعات المتابعة من طرف كل عضـــو في المجتمـــع (الأهداف الثقافية مثل النجاح الاجتماعي، الهيبة...) من مجموع الوسائل المشروعة التي تتيح بلوغ الهداف المحددة بشكل مسبق (المعايير المؤسساتية من قبيل النـــزاهة، احترام الشرعية...). أعد ميرتون نمذجة (تصنيفات) تنـــزع إلى إظهار إن فجـــوة يمكن أن توجد بين الهداف الثقافية المحددة من طرف المجتمع والوسائل التي يمكـــن استعمالها لتلبيتها. وهو يميز بين خمس وضعيات ممكنة.

جدول 2

تصنيف (نمذجة) لطرق التكيف الفردي

Typologie des modes d'adaptation individuelle

طرق التكيف	الأهداف	الوسائل
Modes d'adaptation	Buts	Moyens
I الامتثالية Conformisme	+	+
II الابتكار Innovation	+	—
III الطقوسية Ritualisme	—	+
IV الفرار Évasion	—	—
V التمرد Rébellion	±	±
In Robert Merton, Éléments de théorie et de méthode sociologique, Plon, 1965.		

يعرف الامتثاليون في آن واحد بالوسائل المشروعة والأهداف المحددة. فهم الضامنون للنظام الاجتماعي وهم الأغلبية في المجتمع.

المجددون يتقاسمون الأهداف لكنهم لا يتوفرون على وسائل مشروعة من أجل بلوغها: بمقدورهم أن يضطروا إلى استعمال الوسائل اللامشروعة (يعطي ميرتون مثال آلكابون Al Capone)

إن الحالة المعاكسة للمجدد هي تلك الخاصة بالطقوسي الذي يمنح الأولية للوسائل المشروعة ويتخلى عن كل هدف في "النجاح" الاجتماعي: عندئذ يتحدث ميرتون عن السلوك الروتيني (مثل البيروقراطي الذي يثمن الاحترام الصارم للقاعدة).

يميز الفرار سلوك من (وهم قلة) لا يتعرفون لا في الأهداف، لا في الوسائل المشروعة المحددة من قبل المجتمع: يتعلق الأمر بالنسبة لـ ميرتون بالصعاليك، بـ المتشردين...

أخيرا المتمردون، يرفضون في الآن نفسه الوسائل والأهداف المجتمع لكنهم يقترحون أخرى في مكانها: بهذا يندرج الثوريون ضمن هذا النموذج.

إن ميزة نمذجة (تصنيف) ميرتون تكمن في إشارتها إلى أن الانحراف سلوك اجتماعي لأنه وفقا للموقع الذي يحتله الفرد داخل البنية الاجتماعية، فإن اللجوء إلى الوسائل الشرعية يبدو محتمل تقريبا. بعض الأفراد (الذين ينتمون إلى أدنى طبقات المجتمع) هم، في هذا المخطط، مدعوون إلى اعتماد سلوك المبتكر، بمعنى أن يصيروا منحرفين (مخالفين). هنا تأخذ الفوضوية إذن معنى مختلف جذريا عن معناه عند دوركايم: فالتأكيد لا ينصب حول غياب القواعد القادرة على تحديد الأهداف المشروعة للفرد إنما بأكثر عن عدم وجود تطابق بين الموارد التي يملكها الفرد وأهدافه التي تحركه لاستخدام وسائل غير قانونية.

◀ **مع هذا فقد تعرض تحليل ميرتون لانتقاد من مستويات مختلفة.** فقد تمت مؤاخذته في استعارته لمصطلح الفوضوية anomie من دوركايم مع ما أحدثه من انزلاق للمعنى وهو ما أفضى إلى تجاهل دلالته الأولى.

افترض ميرتون أيضا أن الأهداف الثقافية المحددة عن طريق المجتمع متماسكة وشفافة بما فيه الكفاية بحيث يتم تحديد كل فئة اجتماعية بالنسبة إليها: إنه يميل إلى الإفراط في تقدير وإلى حد كبير الهيمنة الثقافية للمجتمع الأمريكي، لأنـــه يــبني استدلاله انطلاقا من هذه الحالة (الرغبة في الارتقاء أو النجاح الاجتماعي هل هي متقاسمة بإجماع في المجتمع وهل تعني الشيء نفسه للجميع؟). فقد تجاهل مختلـــف الثقافات الفرعية التي تتعايش حتما داخل المجتمع نفسه.

انتهى ميرتون في الأخير، إلى جعل من الانحراف نتاج حساب ضمني: فـــالفرد الذي يصبح منحرفا يكون قد فهم بأنه من الفضل اللجوء إلى وسائل غـــير قانونيـــة لتحقيق أهدافه. بهذا فالانحراف ينتج عن نوع من "الاختيار" الفردي المدروس بنضج.

2- الانحراف هو نتيجة لعملية وضع العلامات التي تدور بين عوامل اجتماعية عديدة

◀ **قد انتقد السوسيولوجي الفرنسي جان- كلود شـــونبوريدون** Jean-Claude Chamboredon**، في دراسة خصصها لانحراف الأحداث**[1]**، مسلمات تحليل ميرتون.** حسب هذا الكاتب، فالانحراف ليس وليد حساب فردي أكثر أو أقل عقلانية إنما يحيل إلى مجموعة ميكانيزمات اجتماعية. في المقام الأول، لا يوجد تعريف عام للمعيار (وبالتالي للانحراف) بما أنه، وفقا للوسط الاجتماعي للانتماء، فإن تعريف القانوني وغير القانوني يبدو متذبذب: فـــ "التشاجر" في الشارع يمكن أن ينظر إليه كفعل ذميم (يستوجب العقاب) في الفئات العليا بينما يتعلق بـــدليل شرف في الأوساط الشعبية، تتعارض الشجاعة الفيزيقية إذن مع الجبن. بتعبير آخر، فإن ما هو معاقب اجتماعيا وقانونيا بوصفه سلوكا منحرفا بإمكانـــه أن يتمثـــل كسلوك "عادي" في بعض الأوساط الاجتماعية، أولئك الذين هم بالطبع الأبعـــد عن المعايير المشروعة. إن انحراف الأحداث المدروس من طرف الكاتب هو، وفقا

---

(1) Jean-Claude Chamboredon, «La délinquance juvénile, essai de construction d'objet», *Revue française de sociologie*, vol. 12, n° 3, 1971.

للإحصائيات، في معظمه شأن الأوساط الشعبية وبخاصة المراهقين المنحدرين من عالم عمالي. فبعدما أكد على الظروف الاجتماعية التي يمكنها تفسير هذه الظاهرة (الضبط الاجتماعي (الرقابة الاجتماعية) أقل أهمية بكثير في الأوساط الشعبية، بشكل خاص اتجاه الذكور، منه في الأوساط الاجتماعية الأخرى، نسبة الفشل المدرسي أعلى بكثير...)، فقد بين شونبوريدون أن الانحراف ينتج عن ميكانيزم في البناء الاجتماعي: فحتى يكون هناك منحرف، ينبغي أن يصف الفاعلون وهم على صلة بمختلف المؤسسات (شرطة، عمال اجتماعيين، مساعدين اجتماعيين، قضاة...) سلوكا بأنه غير قانوني. بتعبير آخر، فإن الانحراف هو نتاج تفاعلات اجتماعية عديدة تربط بين المنحرف المحتمل، ذويه (الأسرة، الأصدقاء...) وممثلين عن السلطة. يبين الكاتب أنه بحكم الوسط الاجتماعي، تختلف القدرة على التفاوض مع السلطات (التحكم الكبير في اللغة تقريبا، خصوصا القانونية، الموقف الذي يحكم عليه بأنه تقريبا محترم من طرف السلطات...). بعض السلوكات سيكون بهذا محدد باعتباره منحرفا بينما البعض الآخر، دون أن يكون مختلفا بالأساس، يفلتون من معالجة قضائية. لهذا السبب فإن الإحصائيات المتعلقة بالانحراف لا ينبغي أن تقرأ وكأنها إحصاء حقيقيا لأفعال مرتكبة، إنما بشكل أكبر بوصفها تسجيل لعمل المنظمات المعنية: إن تقدما إحصائيا للانحراف يمكن أن ينتج فعليا عن نمو السلوكات اللاشرعية لكن أيضا في تكثيف لعمل قوات النظام (فسياسة أمنية أكثر تشددا يمكن أن يكون من أثارها، غير المرغوبة، تزايد أعداد الانحراف، لأن مضاعفة المراقبات يعزّز الرؤية الاجتماعية وبالتالي عدد المنحرفين).
إن بناء الانحراف، في جزء منه، ينتج عن الفعل الخاص بمختلف المؤسسات المكلفة بذلك: فلا يفرض وصف المنحرف، في الواقع، على فرد إلا بعد تدخل الشرطة (التي تزود القاضي بالمعلومات الأولية عن الشخص)، ثم بالعدالة وأخيرا بمختلف مؤسسات إعادة التربية. كل قصة المنحرف يعاد تفسيرها (تأويلها)، في كل مرحلة، من قبل المؤسسات المكلفة بتفسير الدوافع: لسلوك عنيف، إلى التفكك الأسري... كل هذا يمنح "معنى" بأثر رجعي للخبراء (أطباء الأمراض العقلية، علماء نفس...أو علماء اجتماع).

"إن ماضي الشاب المنحرف يعاد بناؤه بالنظر إلى المخالفة الملاحظة عن طريق انتقاء أحداث مجردة صغيرة من سياقها وتحويلها إلى مؤشرات كاشفة بواسطة نمنمة وإعادة بناء."

في نهاية هذه العملية، يتمكن المنحرف من استبطان "تاريخه الخاص" لأن الاحتجاج على تعريف المؤسسة يتغير وفقا للمصادر (الثقافية، الاجتماعية، الاقتصادية...) المملوكة من طرف الفرد وخاصة من طرف عائلته.

ضمن هذا المنظور، لا يمكن أن يفهم الانحراف انطلاقا من الدوافع الفردية فحسب (لماذا أصبح منحرف؟) لأنها تنجم عن تفاعلات اجتماعية عديدة حيث لا يكون النتيجة معينة. عندئذ يكون من الضروري "مقايضة" هذا التساؤل بآخر: **كيف أصير منحرفا؟**

◄ **إن هوارد بيكر، مثل مجموع السوسيولوجيين التفاعليين، اهتم بمسألة بناء الانحراف.** ووفقا لهذا المنظور، فإن الانحراف ناتج عن عملية اجتماعية، يسميها **وضع العلامة (الوسم) étiquetage** في مؤلفه، *المارقون (الخارجون)* *Outsiders* (1963).

"الانحراف ليس خاصية للفعل المرتكب من قبل شخص، إنما بالأحرى نتيجة للتطبيق، من طرف الآخرين، معايير وعقوبات إلى "منتهك". المنحرف هو ذلك الذي انطبقت عليه هذه العلامة بنجاح والسلوك المنحرف هو الذي تعلق عليه المجموعة المحلية هذه العلامة."

يمكن لنفس الفعل، حسب السياق، أن يوصف أو لا بكونه منحرف، وفقا لما يعثر عليه أم لا، في طريقه مقاول أخلاق وعندما تكون الحالة كذلك، إذا كان الفرد أو المجموعة المحتمل أن تكون منحرفة لم تتمكن من التعبئة والحشد لإفشال عملية وضع العلامة (الوسم). تبعا لـ بيكر، فإن الانحراف ظاهرة تمر بمختلف مراحل متتالية، وهو ما أبرزه، من خلال مثال مدخني الماريخوانا. استخدم المؤلف مفهوم **مسار منحرف** (قياسا مع المسار المهني) حتى يبين أن فرض صفة منحرف يستوجب تعلما لمعايير بديلة، عبره يعاد بناء الهوية الاجتماعية للمنحرف. كما

يمكن للعملية، بالطبع، أن تتوقف في كل واحدة من المراحل.

قد يتأتى فرد إلى "تذوق" الماريخوانا: بيكر يوضح أن تبني سلوكات غير مرغوبة اجتماعيا هو بشكل كبير شأن أشخاص بالنسبة إليهم كلفة انتهاك المعايير المشروعة تبدو ضئيلة (شباب، "مهمشين"...).

بعد ذلك عليه تحقيق تعلما حقيقيا حتى يتحكم في مهارة نوعية: تعلم التدخين والتمتع بأثار الماريخوانا.

بعدها على "المدخن" مواجهة جملة من الأسئلة العملية: كيفية الحصول على الماريخوانا بينما بيعها ممنوع؟ كيفية إخفاء هذا النشاط عن أقاربه؟

سيجد نفسه بالتدريج مشارا إليه من طرف محيطه باعتباره منحرفا، وهو ما ينزع إلى رد صورة سلبية عن نفسه ويؤدي به إلى تباعد الاتصالات مع ذويه.

في نهاية "مساره"، يعيد المدخن بناء هويته داخل مجموعة اجتماعية جديدة والتي صار فصاعدا منتميا إليها.

هذا المثال يمكن بالطبع أن ينطبق على دراسة مختلف المجموعات الاجتماعية التي تجتمع ابتداء من نزعاتها الخصوصية والتي تنتهي تدريجيا إلى الانعزال عن باقي المجتمع (الشواذ جنسيا، الأقليات العرقية...).

إذن الانحراف هو تتويج لسلسة تفاعلات اجتماعية التي يمكنها أن تنجم بنهاية العملية على فرض علامة (سمة): هذه الأخيرة تكون لها آثار على هوية الشخص، تقود إلى استعادة التعريف من ذاته كما هو وبالتالي تنتج نفسها وتعدل سلوكها وفقا له.

- 4 -

التنضيد الاجتماعي

المجتمع وأقسامه

أ - مختلف أنماط التنضيد

1- التنضيد الاجتماعي يشير إلى الطريقة التي تقيم بها كل مجتمع تمييزات مبنية على مواقع اجتماعية والتوزيع غير المتساوي للمصادر مثل الثروة، السلطة، المعرفة، النفوذ...

إن المبادئ التي تحكم التنضيد يمكنها أن تختلف بشكل كبير من مجتمع إلى آخر: فالمجتمعات المعاصرة توصف عادة انطلاقا من التقسيم إلى طبقات اجتماعية لكن الأمر لا يتعلق سوى بنمط تنظيم من بين أنماط أخرى. في الواقع، توجد أنواع أخرى من منطق هيكلة المجتمع مثل، نظام الطبقات وتقسيم المجتمع إلى أنظمة.

◄ **يشير نظام الطبقات** Le système des castes **إلى التنظيم الاجتماعي في الهند** (ومع هذا فهو ملغى من الناحية القانونية) **مبني على تقسيم اقتصادي، اجتماعي وسياسي مدعم بواسطة مبادئ الطهر (النقاء) الديني.** فالانتماء إلى طبقة ما وراثي (يولد الطفل بالضرورة في طبقة والديه) ويجد نفسه معززا بواسطة التطبيق الصارم لمبدأ زواج داخلي endogamie(*) (ينظم الزواج داخل الطبقة).

(*) **endogamie** يشير المصطلح إلى زواج داخلي من نفس البنية الاجتماعية (أسرة، عشيرة، طبقة،...إلخ) ونقيضه **exdogamie** أي زواج خارجي، من خارج تلك البنية الاجتماعية التي ينتمي أحد الزوجين. [المترجم]

أهم ميزة في أصالة هذا النظام هي استمراره (ما يقارب ألفي سنة) والفصل الواضح للوظائف الاجتماعية.

يوجد في قمة السلم الهرمي، البراهمان Les brahmanes (الكهنة) التي يديرون المقدس. الكزاترياس Les ksatriyas (المحاربون (الجند) والمنتجون) يحتلون الصف الثاني.

الفايشياس Les vaishyas (التجار وعمال الأرض) يسبقون الشوداس Les shudras (الخدم).

أخيرا المنبوذون Les intouchables، وهم المستبعدين من نظام الطبقات، يشكلون الفئة الأخيرة.

يسعى نظام المنع إلى تحديد العلاقات بين الطبقات وتعزيز الشعور الجماعوي لأن صفاء الطبقات العليا يتعارض مع عدم نقاء الطبقات السفلى: المنبوذ، يعتبر غير نقي لا يمكنه، مثلا، تناول وجبة إلا برفقة من هو مثله منبوذ ذلك أنه لا يستطيع لمس طعام موجه لعضو من طبقة عليا.

◀ **إن نسق الترتيب الذي ميّز فرنسا في النظام القديم يستند إلى أنواع منطقية أخرى.** ثلاثة أنظمة لوظائف نوعية تتعايش: الإكليروس le clergé، النبلاء la noblesse، الشعب (*) le tiers état. الإكليروس، مكلف بالشؤون الدينية، يعين مبادئ التنظيم الاجتماعي بينما فئة النبلاء (مكوّنة أساسا من الفرسان) تضمن الحفاظ على النظام الاجتماعي. هذين النظامين يمارسان هيمنتهما على الشعب، الذي يبدو كفئة متنوعة للغاية، تجمع باقي السكان (البرجوازية، الصناعة الحرفية، العالم الزراعي...). النظامان الأولان منسجمين لكن، خلافا لنظام الطبقات، غير مغلق تماما. إن قاعدة الزواج الداخلي تعرف، على سبيل المثال، استثناءات لدى النبلاء والانتقال من نظام إلى آخر ليس مستحيلا حتى وإن، في الوقائع، يظل استثنائيا: لتشريف جزء من البرجوازية يمر بوجه خاص عبر شراء

(*) وهي الفئات الشعبية المختلفة من دون طبقتي الإكليروس والنبلاء في النظام الفرنسي القديم أي قبل الثورة الفرنسية في 1789. [المترجم]

تكليف (حمولة) (نبل الفستان يختلف هكذا عن نبل السيف أي اختلاف طبقة النبلاء بين القديم والحديث) وكذا عبر الزواج. هذا التنظيم اندثر أثناء الثورة التي بإلغائها الأنظمة فتحت الطريق إلى مجتمع مهيكل على مبادئ جديدة.

2- إن تقسيم المجتمع إلى طبقات أو مجموعات اجتماعية ناتج، في الآن نفسه، عن نهاية مجتمع الطوائف، لكن أيضا للتحولات الاجتماعية حصلت ابتداء من القرن التاسع عشر، أثناء الثورة الصناعية

فمجتمع **النظام القديم** يسيطر عليه الترتيب التقليدي (وهو ما يترجمه الحضور الرئيسي للدين في مجتمع هو بالأساس ريفي) تركت مكانها لتنظيم اجتماعي جديد حيث بدت معايير الانتماء لتجمع أكثر غموضا منها في الماضي. تتميز التحولات الاجتماعية، في الواقع، عن طريق تعدد للوظائف الاجتماعية (التي تتولد عن عملية تقسيم العمل الاجتماعي الذي سلط عليه الضوء دوركايم) وكذلك باستدعاء أنواع أخرى من منطق التصنيف (فالشرف الذي كان يسود في مجتمع الطوائف صار الآن منافسا عن طريق الثروة). لقد تم القيام بتحليل التنضيد الاجتماعي داخل المجتمع الصناعي، منذ بروزه، من طرف رواد علم الاجتماع.

ب - الطبقات الاجتماعية والسوسيولوجيا

1- إن مصطلح الطبقة الاجتماعية، إذا لم يكن مبتكرا من قبل كارل ماركس، فهو مع ذلك لا يزال مرتبط عادة بكتاباته

في الواقع، لقد أعد ماركس نظرية شهيرة عن الطبقات الاجتماعية والتي فرضت نفسها كمرجع لا محيد عنه لأن العديد من الكتاب الذين جاؤوا بعد ماركس نادرا ما ينسون ذكر المرجعية الماركسية، سواء تعلق الأمر بتحيّينها، بمناقشتها أو برفضها. إن تحليله للطبقات الاجتماعية يندرج كعنصر لعمله الفلسفي، الاقتصادي، السياسي لكن أيضا السوسيولوجي.

◄ **بالنسبة إلى ماركس، لا يمكن للطبقات الاجتماعية أن تحد بـالتنظيم المجتمع الصناعي ذلك أن، وفقا له، كل تاريخ المجتمعات البشرية لم يكن سوى تاريخ صراع طبقات.** بالفعل، في هذا المخطط، فإن الطبقات الاجتماعية إن هي إلا تجمعات متخاصمة تتعارض حول امتلاك وسائل الإنتاج. يتضح وأن المعيار الاقتصادي هو المهيمن بما أن تقسيم العمل يترافق بتوزيع غير متساوي للمصادر ومن ثمة فهو أصل الاستغلال الذي تمارسه بعض الطبقات الاجتماعية (تلك التي تمتلك وسائل الإنتاج) على الآخرين: طرح ماركس بهذا التعارض بين النبلاء والعوام في القديم، بين العبيد وملاك الأراضي في المجتمع الإقطاعي والتعارض الرئيسي في المجتمع الصناعي، بين البرجوازية والبروليتاريا. هذا الصراع ينبغي أن يؤدي، في النهاية، إلى تحطيم نهائي للانقسامات الاجتماعية (بمعنى بروز مجتمع من دون طبقات) لأن الديناميكية الرأسمالية من آثارها تزايد عدد البروليتاريين وينبغي أن يؤدي، في النهاية، إلى ثورة اجتماعية. من جهة أخرى، فهذا هو الجانب النبوئي لعمل ماركس الذي يبدو الأكثر اعتراضا لأن مجموع الصراعات التي حصلت داخل المجتمع الصناعي يفترض إدراجها ضمن مخطط مكتوب مسبقا حيث يبدو المخرج أكيد.

◄ **هكذا فالانتماء على طبقة اجتماعية مؤسس على معيار يراد له أن يكون موضوعي: المكانة المحتلة في عملية الإنتاج.** في المجتمع الصناعي، تملك البرجوازية وسائل الإنتاج، بمعنى رأس المال الذي يأخذ شكل الأراضي، المصانع، الآلات ولكن أيضا الأوراق المالية.... في حين أن البروليتاريا، الطبقة الأكثر عددا، مجبرة على بيع قوتها في العمل في تبادل الأجر حيث أن جزء منه لا تأخذ عليه أجرا(وهو ما اسماه ماركس **فائض القيمة plusvalue** الذي يؤسس استغلال العامل).

- يريد التعريف الماركسي للطبقات الاجتماعية أن يكون واقعيا لأنه اختار كنقطة انطلاق الانقسامات الفعلية التي يمر بها المجتمع. بهذا فالطبقات الاجتماعية متماثلة مع مجموعات اجتماعية لها وجود "ملموس". مع هذا

فهذه المقاربة غالبا ما انتقدت بسبب نـــزعتها الاقتصادية (بمعـــنى الميـــل إلى تفسير السلوكات الاجتماعية انطلاقا من المحددات الاقتصادية فقط) وكـــذا بسبب نـــزعتها الغائية (للتاريخ معنى ومعنى واحد فقط، محتوى كبـــذرة في صراع الطبقات)، حتى وإن تضمن عمل ماركس في الغالـــب المزيـــد مـــن الفوارق أكثر من عدد الكتابات اللاحقة المنحدرة من تيار الفكر هذا. فـــإذا كان ينادي في بعض الكتابات النظرية، مثل *رأس المال* 1867 (*Le Capital*)، من انقسام ثنائي للمجتمع (برجوازية/بروليتاريا)، فإنه مـــع ذلـــك انتـــهى إلى تعديله في نصوص أخرى مكرسة لدراسة وضعيات ملموسة. ففـــي 18 *برومر* (*) *brumaire* *للويس بونـــابرت* *Louis Bonaparte (1852)*، علـــى سبيل المثال، ميز ماركس بين سبعة طبقات اجتماعية على الأقل بفرنســـا في القرن التاسع عشر: الأرستقراطية المالية، الملكية العقارية الكبرى، البرجوازية الصناعية، البرجوازية الصغيرة، الطبقة العاملة، الطبقة المحرومة أو البروليتاريـــا الفرعية، طبقة الفلاحين المجزأة. لقد تأتى ماركس بهـــذا إلى تنـــاول أجـــزاء (أقسام) من الطبقة، أي انه يسلم بأنه داخل نفس الطبقة الاجتماعية، فـــإن المصالح المتباينة يمكنها أن تظهر وتثير صراعات مصلحة: وقد أكـــد بدقـــة الانقسامات التي يتقابل فيها، داخل الطبقة الفرنسية المهيمنة في أواسط القرن التاسع عشر، الصناعيون بالملاك العقاريين (نعثر على هذه الانقسامات، على سبيل المثال، ضمن اختياراتهم السياسية).

◄ **يحيل ماركس، في تعريفه للطبقـــات الاجتماعيـــة، إلى معيـــار ذاتي: الشعور بالانتماء لطبقة اجتماعية أو الوعي بالوعي.** في الواقع، فلا يكفي احتلال مواقع مماثلة في البنية الاجتماعية حتى يحصل الوعي بالانتماء لطبقـــة اجتماعيـــة. فالريفيون المجزؤون الذين تطرق إليهم ماركس في 18 برومر لا يشـــكلون طبقـــة اجتماعية في حين وضعيتهم الاقتصادية مماثلة تماما.

(*) **برومر brumaire** هو شهر الضباب أو الشهر الثاني في رزنامة الثورة الفرنســـية أي التقويم الذي اعتمدته وككل ثورة سعت إلى القطع جذريا مع أسس ومظـــاهر نظـــام ثارت ضده. **[المترجم]**

"بالنظر إلى أن ملايين من العائلات المزارعة تعيش في ظروف اقتصادية تفصلهم عن بعضهم البعض وتباين نمط حياهم، مصالحهم وثقافتهم مع ثقافة الطبقات الأخرى للمجتمع، فإنها تشكل طبقة. غير أنها لا تكون طبقة بالنظر إلى عدم وجود سوى رابط محلي بين المزارعين المجزئين وحيث أن تماثل مصالحهم لا ينتج فيما بينهم أية جماعة، ولا أية صلة وطنية أو أي تنظيم سياسي."

إن الفلاحين المجزئين لا يشكّلون حقيقة طبقة اجتماعية بالنظر إلى أن انعزالهم المكاني ومن ثم الاجتماعي يعتبر عائقا مهما أمام تشكيل طبقة اجتماعية.

"هكذا، فإن الكتلة الكبيرة من الأمة الفرنسية مكونة بواسطة إضافة كميات من نفس الاسم، تقريبا بنفس الكيفية لما يكون كيس مملوء من البطاطس يشكل كيسا من البطاطس."

اعتبر ماركس أن الطبقة الاجتماعية لا تعي مصالحها إلا في صراعها ضد الطبقات الاجتماعية الأخرى. يميز ماركس بهذا بين الطبقة في ذاتها والطبقة لذاتها. والحالة هذه يشكل الفلاحون المجزئين **طبقة في ذاتها** (حسب المعيار الاقتصادي، إنهم يحتلون نفس الموقع في عملية الإنتاج)وليست طبقة لذاتها (غياب التنظيم السياسي، علاقات اجتماعية فعلية.... تضر بانبثاق مصالح مشتركة).

إن حدس ماركس، والذي بحسبه لا يمكن اختزال التقسيمات إلى طبقات اجتماعية التي تمت من قبل السوسيولوجي إلى مجموعات اجتماعية معبأة حقيقة، لا تفرق كثيرا حتميتها الاقتصادية وتحيل إلى تساؤلات معاصرة حول شروط تشكيل المجموعات الاجتماعية.

2- لا تقتصر دراسة التنضيد الاجتماعي على النظرية الماركسية: فقد تساءل ماكس فيبر عن أسسها

فهي تنفرد عن موقف ماركس، بوجهة نظر منهجية، بإعدادها لتحليل إسماني[1] nominaliste (وليس واقعي) للطبقات الاجتماعية.

(1) L'approche nominaliste consiste pour le sociologue à élaborer un modèle permettant d'observer la réalité mais qui, à la différence de l'approche réaliste, ne se confond pas avec elle.

◄ **إذن فيبر لا يقوم بتحليل الطبقات باعتبارها مجموعات "واقعية"**. فهو بهذا يعرف وضعية الطبقة بوصفها احتمالا أن يتواجد الأفراد في وضعيات مماثلة فيما يتعلق بامتلاك المداخيل، السلع والخدمات. ثم يميز طبقة الحيازة التي تأخذ بعين الاعتبار الثروة التي تمتلكها، عن طبقة الإنتاج التي تتطابق مع معيار المحدد من طرف ماركس، بمعنى المكانة المحتلة في العملية الإنتاجية. بالنسبة إلى ماكس فيبر، الطبقات الاجتماعية ليست ضرورة محددة بعداء، وأقل بكثير بواسطة "قوانين التاريخ".

- **إن الطبقات الاجتماعية، في هذا المنظور، ليست سوى طريقة من بين أخرى،** للتنضيد الاجتماعي. فهذه تأخذ، في الواقع، ثلاثة أبعاد: فإلى جانب **البعد الاقتصادي**، يضاف **بعد الوضع** [الاجتماعي] **والبعد السياسي**. فالوضع أو الاعتبار الاجتماعي يثير الحظوة المرتبطة بوظيفة اجتماعية ولا يختصر بالضرورة في البعد الاقتصادي. كذلك يكتسي البعد السياسي أهمية في تحليل فيبر: فالوصول الفعلي للسلطة السياسية تقريبا، مثل إمكانية التأثير عليها يختلف اجتماعيا بشكل ملموس. إذن فتحليل التنضيد يستند إلى معايير اقتصادية، اجتماعية وسياسية على حد سواء. لقد أوضح فيبر لا إختزالية كل واحد من هذه الميادين: يمكن لفرد (كأن يكون زعيم نقابي) أن يحتل موقعا ساميا في النظام السياسي ولكن نسبيا أقل في الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية حتى وإن وجدت روابط بين هذه الدوائر؛ إن مدير مؤسسة كبيرة يستفيد من وصول سهل للسلطة ويتوفر على نفوذ اجتماعي معتبر. نستعمل تعبير **تطابق الوضع** عندما تكون المواقع المكتسبة في الميادين الثلاثة متقاربة وغير متطابقة لما تختلف كثيرا. تمثل تحليل فيبر أهمية كبرى في توضيح تعدد الأبعاد للتنضيد الاجتماعي والتأكيد، عمليا، على تعدد الترتيبات الممكنة.

3- امتد التفكير حول الطبقات الاجتماعية في السوسيولوجيا المعاصرة، على وجه الخصوص في إشارة إلى أعمال كل من ماركس وفيبر، من طرف بيار بورديو

يسعى هذا الكاتب لتسليط الضوء على الأبعاد المتعددة الحاضرة في تحليل الطبقات الاجتماعية، التعارضات الموجودة بداخلها وفيما بينها، وكذا البعد الرمزي الذي يتدخل في تقسيم الطبقات الاجتماعية.

بهذا يتحدث بيار بورديو عن فضاء اجتماعي لكي يحلل في الوقت نفسه **الجانب العلائقي** للموقع الاجتماعي الذي نحتله (إن موقعا في الفضاء الاجتماعي لا يوجد إلا مقارنة بمواقع أخرى) وبـ **جانبه الديناميكي** (تقابلات بتعبير أسلوب حياة، طرق تفكير، مصالح اقتصادية تميز هيكلة المجتمع حيث النظام باستمرار "على المحك" بين مختلف الطبقات).

- يمثل بورديو الفضاء الاجتماعي على رسم بياني يعرض ابتداء من محورين جدول المواقع الاجتماعية. العنصر الأول المحدد لموقع على محور أفقي هو **بنية رأس المال structure de capital**، بمعنى المصادر الاجتماعية المملوكة من طرف فرد. يميز بورديو بين ثلاث أنواع من رؤوس الأموال.

  يشمل رأس المال الاقتصادي في الآن نفسه المداخيل والأصول.

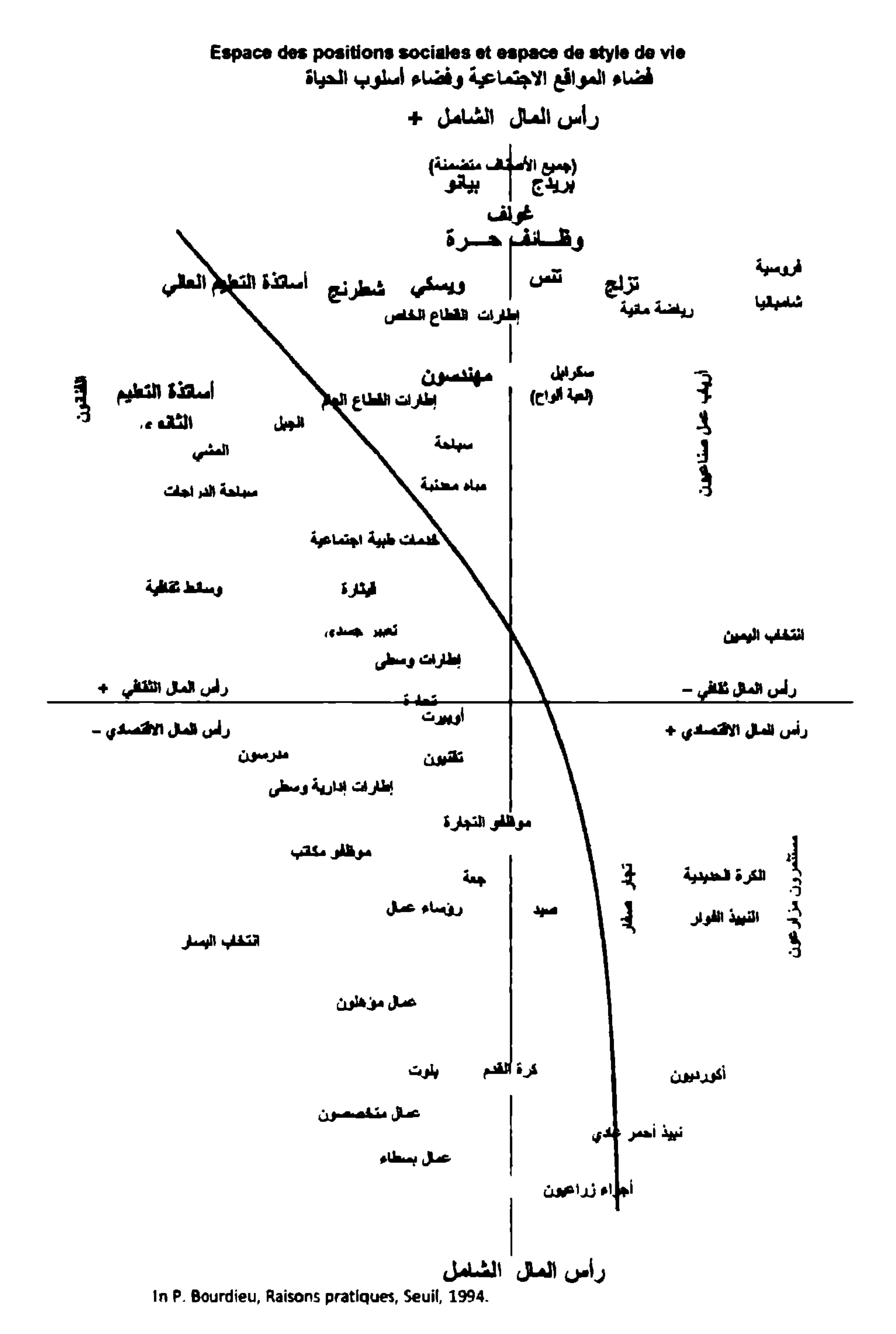
رأس المال الثقافي يتمثل في صورة ثلاثية: مؤسساتي (شهادة)؛ مُوضّع (من القرص إلى اللوحة مرورا بالمكتبة)؛ مستبطن ("محبة الفن" تتطلب معرفة النظر إلى لوحة، ومن ثم امتلاك بعض ملكات الحكم الجمالي).

يشير رأس المال الاجتماعي إلى نوع رأس المال الذي يكمل النوعين السابقين ويضمن لهما مردودا أهم: يتعلق الأمر بامتداد العلاقات الاجتماعية القابلة للتعبئة التي تنبئ عن المساحة الاجتماعية التي يسيطر عليها فرد.

إن حجم رأس المال (المحور العمودي) المملوك يختلف حسب الانتماء الاجتماعي: فالوظائف الحرة والأجراء المزارعين تحتل مواقع متقدمة في توزيع رؤوس الأموال. معيار آخر هو أيضا مهم يسمح بتمييز الأوساط الاجتماعية: فبنية رؤوس الأموال المملوكة تكون حسب رأس المال الاقتصادي أو رأس المال الثقافي المهيمن. في الواقع، بعض الفئات الاجتماعية لا تتمايز أبدا من خلال حجم رأس المال وتحتل، لهذا السبب، مواقع قريبة في الفضاء الاجتماعي (المعلمون وصغار التجار، على سبيل المثال) في حين أنها تتعارض عن طريق بنية رؤوس الأموال

المملوكة (المعلمون يمتلكون المزيد من رأس المال الثقافي أكثر من رأس المال الاقتصادي في حين أن التوزيع معكوس بالنسبة إلى صغار التجار).

◀ **بهذا يقطع بورديو مع تمثيل أحادي البعد للفضاء الاجتماعي لأن التوزيع المعكوس لرؤوس الأموال يحمل على أساليب حياة متباينة:** التوظيف المدرسي، ارتياد المتاحف، يتنامى - ليس فقط مع الموقع الاجتماعي - إنما بوجه خاص بالنظر إلى امتلاك حجم رأس المال الثقافي بينما شراء الأوراق المالية، ممارسة الغولف (رياضة الدقة) أو البريدج (لعبة ورق) تزداد مع حيازة رأس مال اقتصادي. هذا التمثل للفضاء الاجتماعي يسلط الضوء على كل تعقيده. إن رؤوس الأموال المملوكة ليس لها وجود حقيقي في ذاتها، بل يمكنها زيادة على ذلك أن تكون موضوع استراتيجيات تحويل: فالقيام بدراسات مكلفة من أجل اكتساب شهادة معتبرة يعود، على سبيل المثال، إلى استبدال رأس المال الاقتصادي إلى رأس مال ثقافي. ومع هذا فلن يأخذوا دلالتهم إلا عندما يرتبطون ببعضهم البعض: الفئات المهيمنة (المهن الحرة، أساتذة التعليم العالي، أرباب عمل الصناعة والتجارة...) بهذا هم مرتبطون فيما بينهم بعدة روابط (رأس المال الاجتماعي ينتج هنا جميع آثاره) لكن يستطيعون مع ذلك الاعتراض عن طريق ممارساتهم الاجتماعية (آراء سياسية، أساليب حياة...) وفقا لاستعداداتهم النوعية. ينطبق نفس الأمر على الفئات الوسطى والشعبية التي، من خلال هذا التحليل، تفقد تجانسا متخيلا (وهو ما تترجمه، مثلا، عبارة الطبقات الوسطى، فالجمع هنا وكما هو في الغالب مصدر لعدم الدقة) في حين أن مبادئ التمايز (التفاضل) مؤكدة بوجه خاص.



In P. Bourdieu, Raisons pratiques, Seuil, 1994.

◄ **هل يمكن كذلك، عندما يسعى المرء لتسليط الضوء على المبادئ التي تهيكل الفضاء الاجتماعي، أن نتحدث عن الطبقات الاجتماعية؟** يهدف بالضبط تحليل بيار بورديو إلى استعمال بحذر لمفهوم (جدالي كثيرا) للطبقة الاجتماعية. بداية، يتعلق الأمر بالنظر في الاختلاف الموجود بين التجمعات الاجتماعية المتناولة من طرف السوسيولوجي ووجود مجموعات اجتماعية "واقعية"، مدعوة إلى التعبئة وبالتالي إلى التواجد اجتماعيا.

> **"إن التجاور في الفضاء الاجتماعي مهيأ سلفا إلى التقارب: فالأشخاص المنضوين في قطاع محدود من المكان سيكونون في الآن نفسه أقرب من بعضهم (بواسطة خواصهم واستعداداتهم، أذواقهم) وأكثر ميلا إلى التقارب؛ كذلك أيسر في التقارب، في التعبئة. لكن هذا لا يعني أنهم يشكلون طبقة بمعنى ماركس، أي مجموعة معبأة بغرض أهداف مشتركة وبالخصوص ضد طبقة أخرى."**[1]

فالقول بأن طبقة موجودة أو غير موجودة ليس من اختصاص السوسيولوجي، ذلك أن الأمر يتعلق برهان عملي وليس سوسيولوجي. إن تقسيم الواقع إلى طبقات اجتماعية ليس عملية "حيادية" بل على العكس رهانا للصراع بين الطبقات أو المجموعات الاجتماعية. إن تقسيم المجتمع إلى فئات هي عملية سياسية يرضى السوسيولوجي بتصورها كموضوع دراسة: وهذا، في الواقع، عمل التمثل الممارس من قبل الناطق بلسان (السياسيين، النقابيين...) الذي يميل إلى إيجاد المجموعة اجتماعيا وصنع هويتها. فالحديث باسم "الطبقات الشعبية" أو "القوى الحية للأمة" يرجع إلى سحر فعل التمثيل، مفهوما بمعنى مزدوج، سياسي (مرشح للتحدث باسم جمعي) ومسرحي (عن طريق عملية تعود، إلى إخراج المجموعة، إلى إيجادها)، إلى إضفاء التجانس على مجموعة مركبة وكذا إلى فرض "وجهة نظر" أو رؤية للمجتمع تدخل بالضرورة في صراع مع أخرى: فتعارض الشعب مع النخب أو التطرق إلى مجتمع مكون أساسا من الطبقات الوسطى هي، في الواقع، كيفيات

(1) P. Bourdieu, Raisons pratiques. Sur la théorie de l'action, Paris, Seuil, 1994.

مختلفة في تمثّل العالم الاجتماعي ولكن أيضا في إنتاجه، لأن "التقسيمات" تمارس أثارا جد حقيقية على الأفراد والمجموعات الاجتماعية (أنظر الجزء الأول، الفصل 2). إذن يرجع هذا إلى البت ضمنيا في مسألة سياسية (*هل الطبقات الاجتماعية موجودة في المجتمع الفرنسي؟*) والتي تقدم بتملق (لطف) تحت غطاء مساءلة سوسيولوجية.

◄ **ماذا بقي للسوسيولوجي، إذا لم يبحث عن تعداد الطبقات الاجتماعية، ولا الحسم في المسألة الشائكة لوجودها؟** باستطاعته أن يحاول فهم كيف لطبقة أو فئة اجتماعية أن تبنى، بفضل أي آليات اجتماعية أمكنها أن تتخذ بكفاية تماسكا ووحدة حتى "تتوضع"، أي بأن تصير واقعا مفروضا يراه الجميع. هذا هو المسعى الذي اختاره ليك بولتانسكي Luc Boltanski والذي في كتابه *الإطارات* (1982) *Les Cadres*، تساءل عن شروط تكوين مجموعة اجتماعية. برفضه اتخاذ رأي في الجدل غير منته وعقيم مفاده من هو إطار ومن هو ليس كذلك (الذي ضمنه يتجاوز السوسيولوجي حقوقه)، وبمعاينة الكاتب للتنافر العميق لهذه المجموعة الاجتماعية، أعاد رسم المراحل المختلفة التي أنتجت اتساق الجماعة إلى درجة أنه يبدو الآن واقعا "موضوعيا". ففي سنوات 1930، أين ظهر "الإطارات" ضمن سياق سياسي واجتماعي مضطرب (إضرابات 1936، وصول الجبهة الشعبية للسلطة ولكن أيضا ظهور الحركات السياسية الهادفة إلى توحيد "الطبقات الوسطى") باعتبار أنها تستطيع أن تلعب دور الوسيط بين الباترونا (أرباب العمل) والعالم العمالي (الطبقة الشغيلة). نرى هنا أن تقسيم العالم الاجتماعي إلى ثلاثة أبعاد ليس مطلقا حياديا: يبدو المجتمع متنوعا وطبقيا في فئات متتالية (عمال، طبقات وسطى، طبقات حاكمة) بينما في البعدين تتطابق في تعارض لا يقبل الاختزال بين مجموعات متجانسة (عمال/أرباب عمل). انتشرت مجموعة الإطارات في اتساق بعد الحرب بفعل التحولات الاقتصادية والاجتماعية مثل قطاع الخدمات، تزايد المهن الحرة... مع هذا، فإن تشكل هذه الفئة الاجتماعية لا يمكن تفسيره فقط بواسطة معايير شكلية. إن عمل التمثل المنجز

بواسطة إنشاء نـزعة نقابية للإطارات تولد أثار "اعتراف" بوجه خاص قانونية (نصوص رسمية تشهد على وجود هذه الفئة الجديدة من الأجراء) وترتكز على تعدد التكوين النوعي الموجه للعاملين على التأطير (تطوير مدارس المهندسين والتجارة)، استيراد تقنيات إدارة الموارد البشرية للولايات المتحدة، بعث صحافة موجهة للإطارات انطلاقا من سنوات 1960 والتي رسمت "أسلوب حياة" خاص... كل هذه الظواهر المتباينة ساهمت على تجانس التحولات الاجتماعية وعلى إنتاج الوحدة خلف "الغامض". لقد أظهر ليك بولتانسكي بهذا أنه ابتداء من اللحظة التي أخذت فيها المجموعة تماسكا، فإن اللفظ انتشر وبالتدريج أكثر فأكثر يتأتى الأفراد إلى أن يعرفوا أنفسهم وأن يتم التعرف عليهم من قبل الآخرين باعتبارهم "إطارات"، فغموض المفهوم أصبح بشكل مفارق "قوة" ومفتاح نجاح للمجموعة.

"ما هو إذن الشيء المشترك بين رب عمل كبير باريسي منحدر من البرجوازية القديمة ومتخرج من مدرسة كبيرة، وبين عامل سابق صار رئيس ورشة، أو ممثل في التجارة، أو مهندس بحث في مجال الفضاء جاء عن طريق المركز الوطني للبحث العلمي CNRS؟ كل واحد يمكنه أن يطمع في لقب إطار."

كل ما يفصل "إطار بيت"، صار إطار عن طريق الترقية الداخلية والارتباط بمؤسسة، عن مدير لمؤسسة كبيرة ليس ملغى إنما أضفيت عليه نوع من النسبية عن طريق وجود مجموعة يمكن لأفراد جد مختلفين عن بعضهم البعض أن ينتهوا إلى التعارف ومن ثمة إضفاء وجود على المجموعة، بكيفية بديهية.

"لكن هذا التوحيد الرمزي يشكل كذلك، بمعنى ما، رجوعا إلى حالة اللانقسام التي سبقت تكوين "إطارات" ضمن مجموعة واضحة، حيث "المتعاونين"، كما كان يقال إلى غاية نهاية ما بين الحربين، لم يكونوا منفصلين عن "أرباب العمل"، وفي هذا الاختلاف بالضبط الإطارات تتعارف سابقا في صورة رب العمل بينما أرباب العمل يتماثلون أكثر فأكثر في الغالب اليوم في صورة الإطار."

تشكل المجموعات الاجتماعية (أو الطبقات الاجتماعية) إذن حقائق، بدءا من اللحظة التي يتعارف فيها الأفـراد في هـذه التجمعـات. إن تحليـل الطبقـات الاجتماعية، في هذا المنظور، ينطوي حينئذ على فهم الميكانيزمات الاجتماعية التي سمحت ببروز مختلف المجموعات الاجتماعية، طرائق التوضيع (هل توجد مجموعـة المهن الوسيطة، بالكيفية التي توجد بها مجموعة العمال؟)، الرهانات التي تعترضـها وكذا ما يميزها عن غيرها من الفئات الاجتماعية.

- 5 -

السلطة السياسية

السياسي والمجتمع

أ - نشأة السلطة السياسية

1 - يمكن تصور السلطة السياسية بكيفيات مختلفة

من وجهة نظر قانونية، إنها تتطابق مع الحكام (رئيس الجمهورية، الحكومة...)؛ من وجهة نظر فلسفية، تتماثل السلطة مع جوهر (القيادة)؛ من وجهة نظر سوسيولوجية - وهي التي تهمنا هنا -، فالأمر يتعلق بعلاقة اجتماعية قائمة بين الأفراد أو بين المجموعات الاجتماعية.

◄ **يعرف ماكس فيبر في كتابه، الاقتصاد والمجتمع (1922)، السلطة (أو الهيمنة) بوصفها "كل فرصة تجعل من الإرادة الخاصة داخل علاقة اجتماعية تنتصر، ولو ضد مقاومات"**. فالسلطة ليست، ضمن هذا المنظور، خاصية، ماهية، "شيء"، يوجد خارج كل استعمال بل على العكس عنصرا يأخذ دلالته في التفاعلات التي تجمع بين عدة فاعلين ومجموعات اجتماعية. تفترض السلطة علاقة غير متكافئة (بين أفراد مختلفين أو مجموعات) صارت ممكنة بواسطة تحكم غير متساوي للمصادر الاجتماعية (سلطة رب العائلة، مدير مؤسسة، رئيس الدولة...).

فهل للسلطة السياسية إذن صفات خاصة تميزها عن أنواع أخرى من السلطة الموجودة في المجتمع؟ إن ميزة السلطة السياسية تكمن حسب ماكس فيبر في وجود ما يسميه **تجمع للهيمنة**، بمعنى مجموعة في داخلها يخضع الأعضاء لعلاقات هيمنة

بحكم القواعد سارية المفعول، خاصة النصوص القانونية (الدستور، على سبيل المثال). فسلطة رب الأسرة على أبنائه، مثلا تمارس مباشرة من دون وساطة تجمع للهيمنة. إن خصوصية السلطة السياسية بالنسبة إلى فيبر ترتكز على الوسائل التي تتوفر عليها.

"نقول عن تجمع للهيمنة أنه تجمع سياسي عندما وبقدر ما يكون وجوده وصلاحية القواعد تكون مضمونة بشكل مستمر داخل إقليم جغرافي يمكن تحديده من خلال تطبيق وتهديد إكراه فيزيقي من طرف توجيه إداري."

فالسلطة السياسية (أو الدولة، بما أن المصطلحين مترادفين في الفترة المعاصرة) لديها السيطرة على إقليم وتمارس سلطتها على سكانها: وهي تستفيد لهذا من وسيلة نوعية، لا تملكها أية مؤسسة أخرى، **احتكار العنف المادي الشرعي monopole de la violence physique légitime**، حسب تعبير فيبر. باستثناء الدولة، لا توجد سلطة أخرى لها إمكانية اللجوء إلى القوة العمومية (الشرطة، الجيش...)، ولا يمكنها تقييد حرية الفرد (إدانته، مثلا، بعقوبة السجن). إن السلطة السياسية التي تهدف إلى ممارسة سلطة فعلية على كل أعضاء المجتمع، خصوصا بواسطة سن قواعد قانونية، تتوفر على مِلاك(*) personnels لتطبيق قراراتها (أعوان الدولة) وبوسيلة نوعية، التي يمكنها اللجوء إليها، عندما لا تحترم هذه الأخيرة: الإكراه البدني. يتحدث فيبر عن احتكار لأنه، منذ أن تأسست الدولة، فإن المؤسسات الأخرى (السلطات الدينية، على سبيل المثال) فقدت أدوات الإلزام المادي. خلافا، في دولة حيث التجمعات المختلفة تناضل من أجل التحكم في إقليم (في حالة حرب أهلية) لا يمكن أبدا الحديث عن دولة، حتى وإن على المستوى القانوني الدولة لم تندثر، لأن سلطة ممثليها ليس بإمكانها أن تمارس.

2- هل كانت السلطة السياسية موجودة على الدوام في مختلف المجتمعات الإنسانية؟

(*) **مِلاك personnels** أي مجموع الموظفين أو المستخدمين العاملين في جهاز ما، في مؤسسة ما أو في عدة أجهزة ومؤسسات تابعة للدولة. **[المترجم]**

◀ **إن ظهور سلطة سياسية متميزة عن بقية المجتمع لا تتحقق إلا انطلاقا من اللحظة التي يتعقد فيها المجتمع، تبعا لعملية تقسيم العمل الاجتماعي، حسب عبارة دوركايم.** ولهذا السبب يعارض دوركايم منظرّي العقد الاجتماعي (روسو، لوك، هوبز...) والذين في تصورهم أن السلطة السياسية تنجم عن عقد اجتماعي، بعبارة أخرى بتوافق إرادي. إذا كانت هذه الرؤية للعقد بين الشعب والوصي على السلطة قد تمكنت من فرض نفسها في القرن الثامن عشر، فذلك تبعا للمراجعة والتشكيك في النزعة المطلقية (وهو ما تكرس بفرنسا في نهاية النظام القديم) بالدعوة إلى مبادئ جديدة للشرعية السياسية: إن عقدا منجزا عن طريق المجتمع في مجموعه هو بالتأكيد تخيل، لكن هذا من المرجح إحالة سلطة جديدة إلى سلطة سياسية التي، لا تستطيع البحث من جديد عن أساس لها في أصول إلاهية، يتوجب عليها إيجاد أشكال أخرى للاندماج. يؤكد دوركايم على نقص الواقعية في أطروحة العقد الاجتماعي لأنه، وفقا لمسعاه، إذا كان المجتمع يسبق الفرد ويفرض نفسه عليه عندما يأتي إلى العالم، فإن بروز المجتمع السياسي لا يمكن إذن أن يكون ناتجا لـ "قرار جماعي" والذي يمكن أن يفهم منه بأن الأفراد وهم من يشكلون الجسم الاجتماعي قد يكون لهم وجود خارج المجتمع الذي يعيشون فيه[1]. إن بروز السلطة السياسية ينتج، بالنسبة إلى دوركايم، من التحولات الاجتماعية الكبرى: وهو ما يصطلح عليه بالنمو في **الكثافة المادية والمعنوية** للمجتمع، بمعنى الزيادة المحسوسة للسكان على الإقليم ولكن بشكل خاص، في نهاية التطور الديمغرافي، النمو الكيفي والكمي للعلاقات الاجتماعية، التي يحفز على التنوع في الوظائف الاجتماعية. يبدو إذن السلطة السياسية ضرورية من أجل "تنظيم" مجتمع في طور التعقيد. إذن السلطة السياسية ليست حاضرة بوصفها مؤسسة مختصة، إلا داخل مجتمعات معقدة، تلك التي انخرطت في عملية تقسيم العمل الاجتماعي.

(1) Bernard Lacroix, *Durkheim et le politique*, Paris, Presses de la FNSP, 1981.

◄ **فهل المجتمعات البدائية هي مجتمعات من دون سلطة قسـرية؟** هي الأطروحة التي دعمها الأنثربولوجي بيار كلاستر Pierre Clastres في كتابه، *المجتمع ضد الدولة* (1974) *La Société contre l'État*، وفيه يؤكد وجود لا إستمرارية بين المجتمعات البدائية ومجتمعات الدولة. [أي المجتمعات التي تتهيكل في دول، في أنظمة ومؤسسات وقوانين].

> **"لذلك لا يوجد ملك في القبيلة، إنما الزعيم الذي ليس هو رئيس الدولة. ماذا يعني هذا؟ ببساطة أن الزعيم لا يحوز أية سلطة، ولا أية سلطة إكراه، ولا أية وسيلة لإعطاء أمر. الزعيم ليس هو القائد، وما على رجال القبيلة سوى واجب الطاعة. إن فضاء الزعامة ليس محلا للسلطة، والصورة (التي تسمي جيدا بسوء) الـ "لزعيم" المتوحش لا تمثل في شيء صورة مستبد المستقبل."**

ينحصر دور زعيم القبيلة في كونه الخطيب – فهو الذاكرة الحية للمجموعة – والعمل على التنسيق بعض النشاطات الأساسية، مثل العمليات الحربية، لكنه لا يملك أية سلطة إلزامية. إذا كان تحليل كلاستر قد أوضح الضغوط التي تثقل كاهل زعيم قبيلة لا يحوز على مصادر اجتماعية موضعة، وهي رموز حقيقية للسلطة السياسية (مثل جيش في قياداته، بيروقراطية...)، وهو ما يؤدي به إلى التعامل باستمرار مع أعضاء القبيلة، فإن التحليل يميل في المقابل إلى التقليل من شأن ميكانيزمات الضبط الاجتماعي التي تضمن هيمنة المجتمع: تقسيم المهام باهتمام واضح بين الرجال والنساء لمصلحة حصرية للأوائل، عملية فرض قواعد عامة ملزمة للغاية أثناء عملية التنشئة (أنظر القسم الثاني، الفصل 2)... هذه الميكانيزمات تؤدي إلى رفض خارج القبيلة لكل عنصر لا يحترم مبادئها. بعبارة أخرى، إذا كانت السلطة السياسية تأخذ مظهر المكان الفارغ(الخالي)، فذلك ببساطة لأن السلطة الحقيقية موجودة في مكان آخر – لدى الصيادين – المحاربين، أي البالغين الذكور الذين يتوقف عليهم بقاء القبيلة: إن الهيمنة الاجتماعية للقبيلة حيث تقسيم العمل يقلص على أبسط عباراته لا يجعل من الضروري بروز سلطة سياسية متميزة لأن المجموعة الاجتماعية "المهيمنة" لها الوسائل لفرض احترام القواعد على المجموعة. إن فعالية الضبط الاجتماعي تعفي إذن، في بعض المجتمعات صغيرة الحجم، من إقامة سلطة سياسية.

3- ما هو إذن مصدر السلطة السياسية (أو الدولة) بما أنه منذ القرن السادس عشر، أقيم هذا الشكل من التنظيم السياسي في أوربا الغربية، قبل أن ينتشر بأقاليم أخرى؟

◄ **أعاد نوربرت إلياس في كتابه، حركية الغرب (1939) La dynamique de l'occident رسم الظروف التي جعلت ممكنا إقامة سلطة الدولة.** حسب الكاتب، فإن بناء الدول الأوربية يأخذ مكانه ضمن سيرورة طويلة المدة، خاصة بالحضارة الغربية تترجم بواسطة مراقبة ذاتية متدرجة للسلوكات الفردية وبواسطة قمع للعنف الفيزيقي، حاضر بدرجة أقل في الحياة الاجتماعية، لأنه محتكر من قبل الدولة: إذ يكفي تخيل إلى أية نقطة، على العكس من مجتمع اليوم، كان العنف ظاهرة شائعة وعادية في المجتمع الإقطاعي (بطولات، حملات صليبية، حروب بين الولايات الإقطاعية) في نهاية المطاف، صار العنف الفيزيقي حكرا على الدولة وتلاشى تدريجيا في العلاقات الاجتماعية اليومية. بهذا يتحدث إلياس عن تخفيض عتبة الحساسية للعنف، وهو ما يعني تصالح العالمين الاجتماعي والسياسي لأن العنف أصبح شيئا فشيئا غير مقبول للأفراد، وحيث أن البنيات العقلية تطورت تماشيا مع التحولات الاجتماعية. لقد سلط نوربرت إلياس الضوء على أحد العوامل الحاسمة في بناء الدول: التشكيل المكون بواسطة المنافسة المستمرة بين السيادات أثناء المرحلة الإقطاعية من أجل التحكم في الأقاليم. فحالة الحرب الدائمة بين وحدات من أحجام متقاربة، تؤدي، في نهاية إلى انتصار إحدى الوحدات والتي انتهت إلى احتكار قسري بعدما تضمن تفوقها العسكري: وهو ما أسماه إلياس بقانون الاحتكار.

> **"عندما، تكون في وحدة اجتماعية ذات حد معين، عدد كبير لوحدات اجتماعية صغيرة جدا، والتي من خلال ترابطها تشكل الوحدة الكبيرة، تتوفر على قوة اجتماعية تقريبا متساوية - ويمكنها بالتالي بحرية - دون أن تكون محرجة من طرف احتكارات موجودة سابقا - التنافس على فرص القوة الاجتماعية، في المقام الأول وسائل البقاء والإنتاج، فإن الاحتمال قوي أن يخرج البعض منتصرين، الآخرون منهزمين في هذا النزال وأن الفرص تنتهي بين أيدي قلة قليلة، بينما الآخرين يقصون أو يقعون تحت سيطرة قلة منهم."**

ب - أنواع منطق الفضاء السياسي

1- انطلاقا من أية أسس تتمكن السلطة السياسية من الحصول على الطاعة الامتثال؟

◄ **كل سلطة سياسية لا تستطيع الاعتماد على الإكراه وحـده: فهـي تبحث عن إظهار الانخراط من جانب المحكومين - وبالتالي يتم الشعور بأنها هيمنة عادلة - حتى يتم ترسيخ سلطتها.** لقد ألح ماكس فيبر بوجه خاص على أنواع الشرعية للسلطة السياسية، باستخدامه منهج النموذج - المثالي (أنظر القسم الأول، الفصل 1): فقد ميز تباعا الشرعية التقليدية، الشرعية الكارزمية والشرعية القانونية- العقلانية.

تسود الشرعية التقليدية في المجتمعات القديمة وتعتمد على العادات: زعيم القرية، القبيلة يتعلق بهذه الفئة.

تستند الشرعية الكارزمية إلى صفات غير عادية تعار لشخصية من قبل مجموعة تعترف له بقدرة خاصة: لا يهم إن كان هذا الزعيم يملك حقا هذه الصفات التي تعطيه إياها المجموعة، لأنه في هذه العلاقة الاجتماعية، هناك "استسلام النفس" الصادر من طرف المجموعة وهي التي "تنتج" الزعيم بأن تضع نفسها تحت سلطته (فالخطيب الشعبي الذي يحشد الجماهير يمارس سلطة من نوع كاريزمي).

الشرعية القانونية - العقلانية هي شكل من أشكال الشرعية الأكثر استعمالا في المجتمعات الحديثة: إنها تتضمن امتثالا (طاعة) وفقا لقوانين ذات طبيعة لاشخصية (فصلاحيات رئيس الجمهورية أو الحكومة محددة اليوم بواسطة الدستور). إن البيروقراطية التي تسوق توظيف فاعلين عن طريق التنافس، تصدر لوائح قانونية تفرض على الجميع، تعتمد على معارف متخصصة، وهي شكل السلطة القانونية - العقلانية الأكثر انتشارا في مجتمعاتنا.

ينبغي أن نضع في أذهاننا بأن فيبر لم يبحث عن وصف للسلطات السياسية "الواقعية" إنما سعى أكثر استنباط الأشكال العامة للشرعية. بعبارة أخرى، فالفحص الذي يتضمن البحث أي السلطات السياسية "هي" تقليدية، كاريزمية،

قانونية –عقلانية يبدو باطلا لأن، من الناحية العملية، كل سلطة سياسية يمكنها أن تلجأ تلقائيا أو بالتتابع للأشكال الثلاثة: إن رئيس بلدية لمدينة يمارس سلطته منذ مدة معينة يمكن أن يستدعي، على المستوى المحلي، معرفته التامة بتقاليد، "عادات" مواطنيه بينما على المستوى الوطني، إذا كان، على سبيل المثال، وزيرا، سيعتمد على القدرات "التقنية" المخولة لوظيفته وكذا على الإدارة المكلفة بتنفيذ قراراته. باستطاعته كذلك الظهور على شاشة التلفزيون، إنشاء جريدة، توظيف مستشارين في التواصل حتى يزيّن "صورته" ويثبت "سلطته الكاريزمية".

2- في نهاية عملية تقسيم العمل الاجتماعي، صارت السياسة دائرة نشاط مستقل تحكمه رهانات نوعية.

◄ **مع إدخال نظام الانتخاب إلى فرنسا في 1848 – مخصص فقط للرجال إلى غاية 1945 –، تحول النشاط السياسي إلى "مهنة"**[1]، بمعنى إلى مهنة دائم، يكافأ عليها (يتلقى النواب مستحقات برلمانية)، تستوجب حشد مهارات خاصة (معرفة بالقضايا القانونية، الفصاحة...). لم تعد السياسة في أوربا الغربية، ابتداء من نهاية القرن التاسع عشر، مسألة هواة "مستنيرين" يتصورون هذا النشاط كأنه تمضية وقت (على طريقة شاتلين[*] à la manière du châtelain، المرشح الوحيد لوظيفة رئيس بلدية قرية، والذي مارسها كـ "واجب" إزاء المجموعة المحلية) لكنها أصبحت وظيفة كاملة. لقد كتب ماكس فيبر بهذا الشأن أن بعض الأفراد، المحترفين (البرلمانيين، إطارات ودائمين في الأحزاب السياسية...) **يحيون من وللسياسة vivent de et pour la politique**، أي أنهم يحصلون مداخيلهم من ممارسة وظيفة سياسية صارت، في الواقع، مبرر وجودهم الرئيسي. لقد ادينت احترافية النشاط السياسي منذ ظهورها، خاصة من طرف السوسيولوجي الإيطالي

(1) Alain Garrigou, *Histoire du suffrage universel en France*, Paris, Seuil, 2002.

(*) مصطلح **شاتلان châtelain** وهو مشتق من الجذر اللاتيني *castellum أي قصر* château يشير في الأصل إلى أحد سكان القصر أو الضباط وفي فترة العصر الوسيط أصبح يعني ضابط رسمي مكلف بإدارة القصر ومحيطه. **[المترجم]**

روبرتو ميشالز (1876 - 1936) Roberto Michels الذي أعلـــن في مؤلفـــه، الأحزاب السياسية (1914)، عن وجـــود **قـــانون القلـــز (قـــانون حديـــدي) للأوليغارشيا**[*] **loi d'airain de l'oligarchie**: بالنسبة إلى هذا الكاتب، فـــإن الإجراءات الديمقراطية من قبيل انتخاب قادة الأحزاب من طرف المناضلين هـــي، في الواقع، محورة عن معناها لأن الاحترافيين يتقنون بما يكفـــي مـــن المعلومـــات ليضمنوا التوجه الفعلي للتنظيم، الذي يتطابق مع البيروقراطية. إن إضفاء الطـــابع الاحترافي على النشاطات السياسية يبدو على الرغم من ذلك خصوصية لا مفـــر منها للمجتمعات الحديثة لأن ظهور الديمقراطية البرلمانية سار جنبا إلى جنب مـــع التنظيمات الدائمة: الأحزاب السياسية.

◄ **يستعمل فيبر عبارة مؤسسة سياسية ليشـــير إلى تطـــور التجمعـــات الموجهة "للحصول لزعمائها السلطة داخل تجمع ولمناضليها الناشطين الفرص – المثالية أو المادية – لمواصلة أهدافهم الموضوعية، للحصول على مزايا شخصية، أو لتحقيق الاثنين معا"**. إن الأهمية الكبيرة لمسعى فيبر تكمن في تفادي كل حكم قيمة (من نوع، لا يفكر محترفوا السياسة إلا في مصالحهم الشخصية) وإدخـــال أن الصراع لاحتلال مناصب (انتخابية أو حزبية) هي جزء لا يتجزأ مـــن النشـــاط السياسي: إنها لا تعارض لكن يمكنها أن تجمع مع الدفاع عن مبادئ (إيـــديولوجيا سياسية، على سبيل المثال) تترجم إلى قضايا سياسية بغرض إيقاظ دعم النـــاخبين. إن مفهوم المؤسسة السياسية، بالتماثل مع المؤسسة الاقتصادية، يؤكـــد التنـــافس القائم بين تنظيمات سياسية لكسب ود الناخبين. مع هذا لا ينبغـــي نســـيان أن

(*) **القانون الحديدي للأوليغارشية loi d'airain de l'oligarchie** مفهوم يســـتخدم في علم الاجتماع خاصة وقد استخدمه روبرت ميشالز لكي يصف نـــزعة أيـــة تنظـــيم يسعى لإفراز نخبة القلة ويرتبط هذا المفهوم أيضا بنقد نخبوية الديمقراطية وهـــو لـــدى مدرسة اجتماعية عند كل من موسكا، باريتو وميشالز تنتقد وهم ديمقراطية الأحزاب السياسية. هذا القانون له أيضا دلالتين اقتصادية من حيث أنه نظرية اقتصادية تقول بأن أجر العامل لا يمكن قط أن يتجاوز الحد الحيوي الأدنى. ودلالة سياســـية تكمـــن في الانقسام بين أقلية حاكمة وأغلبية محكومة. [**المترجم**]

الاقتراع لا يشبه سوى من بعيد إلى غزو سوق من طرف شركة وأن التماثل غير المراقب لميداني النشاط هذين يمكن تجاهل خصوصيات النشاط السياسي.

◄ **إذن ما هو الدور الذي يعطى في الديمقراطية للناخبين، أي إلى "عموم الشعب" إذا كانت السياسة قبل كل شيء هي قضية احترافيين؟** إن جوزيف شومبيتر والذي استعمل هو أيضا التناظر مع السوق لتحليل الظواهر السياسية، اعتبر أن النظرية الكلاسيكية للديمقراطية والتي وفقا لها أن الكلمة الأخيرة تعود للمحكومين بما أن السيادة السياسية تعود إليهم، لا تعكس الواقع إلا بطريقة ناقصة. هكذا قدر شومبيتر أن تقسيم العمل الذي تم ضمن النشاط السياسي يفضي إلى تخصص الوظائف وإلى تطور المصالح النوعية للاحترافيين. ضمن هذا المنظور لا يلعب الناخبون سوى دور ثاني - ومع هذا فهو غير هيّن - لانتقاء محترفين.

> **"إن الطريقة الديمقراطية هي النظام المؤسساتي، الذي يقود إلى قرارات سياسية، وضمنه يكتسب الأفراد سلطة اتخاذ هذه القرارات بعد صراع تنافسي يتعلق بأصوات الشعب."**[1]

إن إضفاء المهنية على السياسة يمكن أن يقود عندئذ إلى تقننة technicisation النقاشات السياسية التي تختصر إذن في مسائل احترافيين، ولن يعبر الناخبون إلا في لحظة الانتخابات. هذه الظاهرة يمكن أن تتعزز عن طريق **التوظيف الاجتماعي لمحترفي السياسة**، التي تظل بعيدة جدا عن تركيبة السكان النشيطين لأن الأغلبية الساحقة منهم تنحدر من فئات عليا، حتى وإن وجدت فوارق بين تشكيلات سياسية. فقد كشفت دراسة تتعلق بالأصل الاجتماعي لمحترفي السياسة، على سبيل المثال، أنه بالنسبة للفترة الممتدة من 1959 إلى 1981 (التطورات منذ هذا التاريخ لم تعد لها دلالة) قرابة 94 % من الوزراء وأكثر من 80 %من البرلمانيين ينحدرون من فئات عليا (صناعيين، مهن حرة، إطارات عليا، وظائف فكرية) ويختم الكاتب:

---

(1) J. Schumpeter, *Capitalisme, socialisme et démocratie* (1942), Paris, Payot, 1951

"كلما كان موقع السلطة السياسية مرموقا، كلما كان الرهان منطويا في غزوها ومن ثم الصفات الاجتماعية للطامحين في نيلها، ومن باب أولى، تلك الخاصة بالفائزين بالكأس."[1]

◄ **الظاهرة الأخيرة: إن الاهتمام بالسياسة بعيد عن تحقيق الإجماع في المجتمع.** فغالبية الناخبين، في الواقع، يقفون بحذر وبعيدين عن لعبة سياسية لا يفهمون أبدا دلالاتها (لغة مغلقة، رهانات معقدة جدا ومنفصلة عن انشغالاتهم اليومية...). ولهذا السبب أمكن لـ دانيال غاكسي Daniel Gaxie أن يعنون، كتابا مخصصا لتحليل أشكال المشاركة السياسية، الإحصاء المخبأ (1978).*Le Cens caché*، في إشارة مرجعية إلى انتخاب دافعي الضرائب(*) suffrage censitaire، .بمعنى في اللحظة (إلى غاية منصف القرن التاسع عشر، في فرنسا) التي كان فيها فقط الأفراد الذين يدفعون مبلغا معينا من الضرائب هم من يملكون حق الانتخاب. الإحصاء لم يعد يعمل بالطبع على نفس المبادئ منذ بدء الانتخاب العام. مع هذا، فالمشاركة الفعلية في النشاط السياسي وفهم العالم السياسي غير موزعين بتساوي لأنه، حسب الكاتب، ما يقرب من 10% من السكان فقط يشاركون فعليا في الحياة السياسية (دوريا أو بانتظام). تزداد المشاركة مع الموقع الاجتماعي وأكثر أيضا مع حجم رأس المال الثقافي المملوك، الذي يدفع إلى شعور بالكفاءة الذاتية. بتعبير آخر، فالديمقراطية التمثيلية، بغض النظر عن المبادئ التي تتأسس عليها، مثل مشاركة الجميع في الشأن العام، لم تعمل إلا مظهريا على تبديد الفوارق الاجتماعية. تفسر هذه الأخيرة، بالمقابل، في جزء كبير، لامبالاة أغلبية السكان إزاء القضايا السياسية[2].

---

(1) D. Gaxie, «Immuables et changeants: les ministres de la Ve République», *Pouvoirs*, no 36, 1986 et Nicolas Hubé «Le recrutement social des professionnels de la politique» dans A. Cohen, B. Lacroix, P. Riutort, *Nouveau manuel de science politique*, Paris, La Découverte, 2009,

(*) **انتخاب دافع الضريبة** أو **suffrage censitaire** عبارة عن نظام سياسي يقضي بأن يكون المواطن دافع ضريبة ليحق له الاقتراع. [المترجم]

(2) Cécile Braconnier, Jean-Yves Dormagen, La Démocratie de l'abstention, Paris, Gallimard, 2007.

- 6 -

الرأي العام
ماذا رأي الشعب؟

أ - تحولات الرأي العام

1- يعني الرأي العام أشياء عديدة متمايزة

في لغة جارية، هذه العبارة تثير مزاج الزمن، الشعور الذي تتقاسمه مجموعة اجتماعية أو جماعة محلية. تاريخيا، كان للرأي العام معنى آخر: يتعلق الأمر برأي الشخصيات "المستنيرة" التي، بحكم معارفها، تبدي رأيها حول الرهانات الهامة من أجل تقديم "النصائح" لمجموع السكان. أخيرا، فالرأي العام في المجتمعات المعاصرة تطابق تدريجيا مع استطلاعات الرأي التي تهدف بحق لقياسه، لتقييمه بغرض، مثلا، أن يعرف الحاكمون ما يفكر فيه المحكومين من نشاطهم.

◄ **حتى نتمكن من الحديث عن الرأي العام، ينبغي مسبقا، أن يصبح تدخل العدد، الأغلبية، في الشؤون العامة مقبولا.** وهكذا، فإن الفيلسوف والسوسيولوجي الألماني يورغين هابرماس Jürgen Habermas قد روى في كتابه، *الفضاء العمومي* (1962) *L'Espace public*، ظروف بروز الرأي العام: فالفضاء العمومي، في أوربا الغربية، ابتداء من القرن السابع عشر وبوجه خاص من القرن الثامن عشر، انفصل عن فضاء الدولة، أي عن السلطة السياسية. إن نمو التبادلات الاقتصادية، تزايد نشاطات التجارة تترجم بصعود قوي لمجموعة اجتماعية جديدة: البرجوازية. لقد سلط هابرماس الضوء على تطور ممارسات جديدة للمؤانسة المرتبطة بالمجتمع البرجوازي (ظهور الصالونات الأدبية، المقاهي، تطور

الصحافة...) والتي كان من نتائجها تأثير كبير على توسيع لنطاق المناقشات العامة وخاصة السياسية. شيئا فشيئا، تشكّل فضاء جديد حيث أن أفرادا على أساس كفاءاتهم ومعارفهم – فالثقافة هي واحدة من المعايير المحددة للانتماء – تمكنت نخب اجتماعية جديدة من اتخاذ موقف حول الشؤون العامة و لم تتردد في نقد الحكومة، لا سيما لما ترى بأن آراءها لم يصغ لها بما يكفي: "يتعلق الأمر بأشخاص خواص والذين، بحكم أنهم عموميون، يقيمون علاقات بينها ويرقون تبادلات ضمن نفس هذه الدائرة". إن الدائرة العامة تتولد هكذا من اتحاد أشخاص خواص الذين باجتماعهم يشكلون جمهورا. بهذا بقي الرأي، لفترة طويلة بعد الثورة الفرنسية، حكرا على النخب "المستنيرة" التي تتذرع بالسبب للحسم في القضايا العامة وتحاول لعب دور الوسيط بين الشعب الذي ينبغي توجيهه والسلطة السياسية التي يتوجب التأثير عليها.

◄ **مع هذا فإن تشييد الانتخاب العام أرجع من الضروري استشارة المحكومين في الحياة السياسية.** إن الديمقراطية البرلمانية القائمة على مبدأ التمثيل السياسي، والذي وفقا له فإن منتخبي الشعب هم وكلاء من عيّنهم ويتصرفون باسمهم، تؤدي مع ذلك إلى تدخل محدود للناخبين حيث أن التدخل الرئيسي يمارس بواسطة ورقة التصويت. لقد سمح عدد معين من التحولات الاجتماعية، منذ منتصف القرن العشرين، ببروز رأي عام "جديد" يمتد، هذه المرة، إلى عبارة مجموع الجسم الانتخابي. إن تطور وسائل الاتصال الجماهيرية وخاصة أهمية التلفزيون، اللجوء المتزايد إلى الوسيلة المعلوماتية، تحسن المناهج الإحصائية، تطوير التسويق... كل هذه التطورات تساهم في إضفاء الشرعية على تساؤلات السكان والتي يمكن، بفضل التقنيات الجديدة، بلوغها مباشرة، دون الرجوع كما كان الحال سابقا إلى الناطق الرسمي. ومن هذا المنطلق، فإن استطلاعات الرأي يمكن اعتبارها كمساعد قيم للديمقراطية لأن السلطات السياسية تعلم فوريا بردود أفعال التي تثيرها قراراتهم لدى ناخبيهم. فهؤلاء يتوفرون من الآن على وسيلة تعبير، ليس فقط أحيانا (يوم الانتخابات)، إنما بصفة دائمة. إذن بروز استطلاعات الرأي

يتماثل مع انتصار للديمقراطية المباشرة لأن السكان باستطاعتهم فصاعدا البت مباشرة في النقاشات السياسية دون الاعتماد على الوسطاء والذين هم محترفوا السياسة[1].

2- ومع ذلك، من المناسب أن نخفف من هذا التفاؤل الجميل بالتساؤل حول ما تقيسه حقا استطلاعات الرأي

لا يتعلق الأمر بتقديم منهجية الاستطلاع بصورة عامة (أنظر القسم الأول، الفصل 2) إنما بفهم خصوصيات الاستطلاع التي لا تستند كثيرا على الممارسات الفعلية للأفراد ("*هل تذهب في عطلة هذا الصيف؟*") مما يفترض التفكير فيه ("*هل تفضل البحر أم الجبل؟*").

◄ شدّد بيار بورديو بشكل خاص على عدد معين من المشكلات المنهجية الخاصة باستطلاعات الرأي في مقال شهير: "الرأي العام لا يوجد[2]".
يعبّر دليل الكاتب الذي يهدف إلى التشكّيك ومراجعة المصادرات الضمنية من استطلاع الرأي عن ثلاث نقاط: كل استطلاع للرأي يأخذ هذا المر على أنه بديهي فالجميع يملكون رأيا حول أي موضوع، وأن كل الآراء الواردة متساوية (بمعنى أن لها من الناحية الاجتماعية نفس الوزن)، وأخيرا يوجد اتفاق مسبق حول القضايا التي تستحق الطرح.

يرفض بورديو بالتناوب هذه القضايا: فمن الخطأ اعتبار أن كل شخص مستجوب يملك، في الحال، رأيا حول المسائل التي تطرح عليه ذلك أن سؤالا، مهما يكن، لا يثير اهتماما متساويا لدى السكان (فعلى سبيل المثال، إن استبيانا يتعلق بالسياسة الزراعية العامة يهم بالتأكيد المزارع أكثر مما يهم العامل). وبتعبير

(1) Sur l'histoire des sondages, Loïc Blondiaux, *La Fabrique de l'opinion*, Paris, Seuil, 1998.

(2) P. Bourdieu, «L'opinion publique n'existe pas», *Les Temps modernes*, no 318, 1973.

آخر، فإن الاتجاه الذي يقتضي تقديم، لأننا في نظام ديمقراطي، إلى عينة ممثلة لمجموع السكان قد يكون قصدا مستحسنا، لكنه قد ينتهي عادة إلى حادث عارض: فالمسح يجمع في آن واحد الآراء المُشكّلَة حقا (كالمزارع وهو يتحدث عن السياسة الزراعية العامة PAC) وأجوبة من دون أساس لما يتمكن محقق بارع من الحصول عليها باللعب على ملل مخاطبه (مثلا، العامل المستجوب حول السياسة الزراعية العامة، والذي ينتهي بشطب خانة). علاوة على ذلك، فإن القدرة على إبداء رأي ليست، شيئا أكثر من الاهتمام بالسياسة (أنظر القسم الثاني، الفصل 5)، شيء كذلك موزع على السكان: احتمال التعبير عن الرأي ينمو مع الشعور بالقدرة السياسية (أي مع الموقع الاجتماعي ورأس المال الثقافي)، وهو ما توضحه جيدا تحليل استطلاعات الرأي من دون إجابة[1]. إن الإجابات المقدمة ليس لها من الناحية الاجتماعية نفس الأهمية. لا يتعلق الأمر بمراجعة المساواة القانونية المعلنة في النظام الديمقراطي، بل بالإشارة "كما لو أن" أن للجميع رأي وبعد ذلك تجمع النتائج، يعود إلى إصدار رقم ("53 % من الفرنسيين يعتقدون أن.....") من دون الارتباط بميكانيزمات تسمح بتجميع إجابات جد مختلفة تبدو مع ذلك متكافئة في نهاية التحقيق.

أخيرا، استطلاعات الرأي تفترض أن الأسئلة المطروحة هي محل إجماع بينما ظاهريا "مواضيع الانشغال" ليست متطابقة في مختلف الأوساط الاجتماعية. بهذا يعمل الاستطلاع على فرض إشكالية لأنه يميل إلى تحديد طريقة مشروعة في الحديث عن موضوع. ولهذا السبب يعتبر بيار بورديو أن استطلاعات تعلم أكثر حول من يطرحون الأسئلة من الذين يجيبون لأن التساؤلات تختلف بحسب الرهانات السياسية، "روح العصر"... إن التقدم الانتخابي للتيار الإيكولوجي، بروز موضوع "البيئة" في وسائل الإعلام يقود، مثلا، إلى مضاعفة استطلاعات في هذا الميدان، مع احتمال التخلي عن الموضوع عندما يتغير السياق.

(1) Sur ce point: G. Michelat, M. Simon, «Les “sans-réponse” aux questions politiques: rôles imposés et compensation des handicaps», *L'Année sociologique*, vol. 32, 1982.

ب - الرأي العام و"صناع" الرأي

1- .كيف يفسر إذن النجاح الذي صادفه استطلاع الرأي، خاصة في بلد مثل فرنسا، التي تملك رقما قياسيا في هذه المسألة؟

◄ لا يمكننا اليوم أبدا استعادة عنوان مقال بيار بورديو، طالما أن استطلاع الرأي صار مألوفا. فاستطلاع الرأي وهو مسير من طرف الأحزاب السياسية، الحكومة، الصحافة، يحرك بإيقاعه الحياة السياسية وهو جزء لا يتجزأ من العالم الإعلامي. مع ذلك، إذا كانت استطلاعات الرأي قد فرضت نفسها، فذلك ببساطة لأنها أصبحت موضوع تكييفات مختلفة وأن بعض الفاعلين الاجتماعيين قد وظفوا هذا الميدان الجديد من النشاط[1].

- إن إدخال استطلاعات الرأي لم يكن شيئا سهلا مثلما يمكن أن يوحي به النجاح الحالي. إذا كان أول معهد فرنسي للمسح، IFOP المعهد الفرنسي للرأي العام (L'Institut français d'opinion publique) قد أنشئ منذ 1938 من طرف عالم النفس الاجتماعي جان ستويتزل (1910 - 1987) Jean Stoetzel، فإن التقنية لم تصبح مشروعة في فرنسا إلا في وقت لاحق من ذلك بكثير، بينما كانت سابقا، في ذلك الوقت، ممارسة جارية في الولايات المتحدة. هناك حدث سياسي ساهم بشكل كبير إلى إضفاء الشرعية على استطلاعات الرأي بفرنسا: الانتخابات الرئاسية في 1965 والتي جرت بالاقتراع العام المباشر. فقد باشرت مختلف المعاهد العديد من التحقيقات التي أعلنت، في شبه إجماع، إخفاق انتخابي للجنرال ديغول. هذه النتيجة الانتخابية، التي برزت في ذلك الوقت مثيرة، معلنة مقدما، بدقة من طرف مسوحات الرأي، أعطت مصداقية لهذه التقنية لدى محترفي السياسة الذين

(1) L'analyse qui suit s'appuie principalement sur: P. Champagne, *Faire l'opinion. Le nouveau jeu politique,* Paris, Minuit, 1990. Voir également A. Garrigou, *L'Ivresse des sondages,* Paris, La Découverte, 2006 et Patrick Lehingue, *Subunda. Coups de sonde dans l'océan des sondages,* Broissieux, Éd. du Croquant, 2007.

يأملون في إيجاد وسيلة جديدة للتنبؤ وبالتالي استباق النتائج الانتخابية. والحالة هذه لنوضح أن التوقع الانتخابـــي الناجح لا ينقص في شيء من الملاحظـــات السابقة حول منهجية استطلاع الرأي. في الواقع، من جهة، فإن عددا مهمـــا من التحقيقات الانتخابية وخاصة تلك التي تســـمح بـــالإعلان عـــن نتـــائج الانتخابات منذ غلق مكاتب الاقتراع ليست استطلاعات انتخابية فعلية إنمـــا تقديرات (بمعنى أن المعطيات تتعلق بجزء بسيط من الأصوات، ومن ثمة علـــى سلوكات وليس على مجرد آراء) ومن جهة أخرى، فإن الاستطلاعات السابقة على الانتخابات تنتشر تدريجيا كلما اقتربنا من تـــاريخ الاقتـــراع لأن رؤيـــة الرهان تتزايد، حتى وإن كان جزءا لا يستهان به في الجسم الانتخابـــي يقـــرر بشأن انتخابه في اللحظات الأخيرة وأحيانا في نفس اليوم. على العكس مـــن ذلك، فإن استطلاعا للرأي يتعلق بنتائج انتخابية أعد بأشهر عدة، بـــل ربمـــا بسنوات قبل الانتخاب، لا يمثل قطعا أي اهتمام سوسيولوجي.

2- لقد ربط باتريك شامباني Patrick Champagne انتشـــار اســـتطلاعات الرأي وتحولات اللعبة السياسة

◄ لقد ساهم عدد معين من الآليات الاجتماعية في جعل اســـتطلاعات الرأي "وهما مبررا"، أي اعتقاد جديد فرض نفسه اليوم على كـــل زعـــيم في النقاش السياسي. إن مضاعفة المعاهد خلق "عرضا" للاستطلاعات موجه للعاملين في المجال السياسي والذي، منذ الجمهورية الخامسة، معظمه في الأصل تكنوقراطي (تقريبا كل زعماء الأحزاب السياسية وأعضاء الحكومة ينحدرون مـــن المدرســـة الوطنية للإدارة) بدا حساسا لإنتاج "معطيات" لها مظهر الموضوعية العلمية. تمثـــل استطلاعات الرأي منافذ جديدة في العلوم الاجتماعية (مثل نشاطات المســـتطلع، العالم السياسي...). لقد صارت كذلك "سلاحا" استولى عليه الصحافيون حـــتى يتساووا "في اللعبة" مع رجال السياسة: بفضـــل اســـتطلاعات الـــرأي، يمكـــن للصحافيين استدعاء "الرأي العام "الذي يعبّر عبر أفـــواههم، عنـــدما يســـائلون السياسيين... إن الرأي العام الناجم عن استطلاعات الرأي، لا ينحصر في كونـــه

معاينا من قبل شركائه إنما يصبح رهانا مركزيا جديدا ذلك أنه بالنسبة لكل رجل سياسي، يتعلق الأمر فصاعدا بأن يكون الرأي إلى جانبه. يخرج النشاط السياسي بتحول مقبول: فالسياسيون يلجؤون هكذا أكثر فأكثر غالبا إلى مستشارين في الاتصال بغرض تحقيق "صدى إعلامي" ويجدون أنفسهم تحت ضغط حملة انتخابية شبة دائمة لأن الفعل السياسي ليس مقيما على المدة (أثناء الانتخابات) إنما بتقييم دائم[1]. بتعبير أخرى، فإن اللعبة السياسية كما يقدمها المعلقون على الاستطلاعات، تتقلص إلى سباق أحصنة (*"لقد خسر الرئيس أيضا ثلاث نقاط*!") وهو ما يجبر رجال السياسة على التصرف "السريع"، بناء على نتائج الاستطلاعات: هذا الرجل السياسي أو ذالك هل يختار التقدم أم لا لانتخابات أو هل سيختاره مناضلو الحزب بالنظر إلى الاستطلاعات المنجزة في حين أن التجربة تثبت أن الحملة الانتخابية عدلت "المعطى" في أغلب الحالات.

فلن يفيد في شيء البكاء على الآثار الضارة لاستطلاعات الرأي في الديمقراطية - ولن يكون هذا فضلا عن ذلك من اختصاص السوسيولوجي -: سيكون الأمر أدعى إلى الاهتمام أكثر بفهم كيف أصبحت استطلاعات الرأي بواسطة نوع من **النبوءة المتحققة ذاتيا**[2] عنصرا مركزيا للعبة سياسة جديدة والوقوف على الآثار الاجتماعية التي تحفز.

خلافا للمظاهر، فإن استطلاعات الرأي لا تحاول إذن تقريب السكان من السياسة بما أن، هذا "القاضي" لنوع جديد من النشاطات السياسية، يبقى بعيدا عن الانشغالات الفعلية التي تظهر في المجتمع. اللعبة السياسية، بواسطة الدراسات الاستقصائية، تسعى بهذا إلى الانزواء على ذاتها والاشتغال في دائرة مغلقة، تماما مع إعطاء فاعليه ومستعمليه الأساسيين، المنذهلين بالوسيلة، الوهم بالشفافية.

---

(1) P. Riutort, *Sociologie de la communication politique*, Paris, La Découverte, 2007.

(2) Robert Merton désigne, par cette notion, les effets bien réels produits par les phénomènes de croyance collective: une rumeur infondée de faillite qui atteint une entreprise peut avoir pour conséquence un effondrement de ses titres sur le marché financier et conduire ainsi à une faillite que rien, hormis la rumeur, ne justifiait.

ببليوغرافيا أساسية

بيبليوغرافيا أساسية

فضلنا عدم ترجمتها عناوين المؤلفات الأساسية وتركها كما هـــي بلغتـــها الأصلية حتى يتسنى الرجوع إليها مباشرة في حال البحث عنها ثم إننا لا ندري إن كانت قد ترجمت أم لا ولذا نتركها كما جاءت باللغة الفرنسية. كما ينبـــه الكاتب إلى أن المراجع والمقولات التي وردت في متن الكتاب لا تـــذكر إلا في حالات استثنائية.

Bibliographie de base

Sauf exception, on ne mentionnera pas ici les ouvrages et articles déjà cités dans le corps de l'ouvrage.

حول تاريخ السوسيولوجيا

• Sur l'histoire de la sociologie

Nisbet (Robert A.), La Tradition sociologique (1966), Paris, Puf, «Quadrige», 2005, 416 p. Une présentation succincte du contexte d'apparition de la sociologie. L'émergence de la pensée sociologique est traitée à partir de cinq concepts centraux (communauté, autorité, statut, sacré, aliénation).

Lallement (Michel), Histoire des idées sociologiques, 2 t., 3e éd., Paris, Armand Colin, «Circa», 2007. Ouvrages pédagogiques qui abordent chronologiquement les divers courants de pensée importants pour la discipline. Complets, d'une grande clarté, ils bénéficient d'une utile sélection de textes classiques.

Simon (Pierre-Jean), Histoire de la sociologie, 2e éd., Paris, Puf, «Quadrige», 2008.

Manuel érudit insistant sur les pères fondateurs.

كلاسيكيات سوسيولوجية

• **Un classique à lire absolument**

Durkheim (Émile), Le Suicide (1897), Paris, Puf, «Quadrige», 2007, 512 p.

L'ouvrage dans lequel Durkheim met à l'épreuve les principes dégagés dans Les Règles de la méthode sociologique. Une leçon de méthode.

البحث السوسيولوجي

• **Faire de la sociologie**

Champagne (Patrick), Lenoir (Rémi), Merllié (Dominique), Pinto (Louis), Initiation à la pratique sociologique, Paris, Dunod, 1989, 238 p.

Ouvrage très utile qui retrace la démarche sociologique en acte, à partir d'exemples précis. Comment conduire une enquête, utiliser des statistiques…? Ces questions prennent ici toute leur dimension et le sociologue- débutant y trouvera de nombreuses réponses.

بعض المؤلفين المعاصرين

• **Quelques auteurs contemporains**

Raymond Boudon, La Logique du social (1979), Paris, Hachette, «Pluriel», 2001, 310 p. Présentation claire et synthétique des principes d'analyse de l'individualisme méthodologique par son plus célèbre représentant français.

Pierre Bourdieu, Questions de sociologie (1980), Paris, Minuit, 2002, 278 p. Un recueil de textes facilement accessibles qui introduisent à l'oeuvre du dernier titulaire de la chaire de sociologie au Collège de France.

Pierre Ansart, Les Sociologies contemporaines, Paris, Seuil, «Points», 1990, 338 p. Un panorama de la sociologie française actuelle: présentation des oeuvres principales et de quelques «grands noms».

Philippe Corcuff, Les Nouvelles Sociologies, Paris, Armand Colin, 2011. Présentation claire des enjeux théoriques de la sociologie contemporaine.

ثبت بالمصطلحات والمعاني

Index des notions

Configuration	تشكيل	23
conscience collective	ضمير جمعي	24
conscience de classe	وعي الطبقة	25
construction sociale de la réalité	البناء الاجتماعي للواقع	26
contrat social	عقد اجتماعي	27
contre-culture	ثقافة مضادة	28
Corrélation	تلازم	29
culture légitime	ثقافة مشروعة	30
culture populaire	ثقافة شعبية	31
définition préalable	تعريف مسبق	32
délinquance juvénile	جنوح الأحداث	33
Désencastrement	فك الاندماج	34
division du travail social	تقسيم العمل الاجتماعي	35
domination culturelle	هيمنة ثقافية	36
don, contre-don	هبة ضد هبة	37
dualité du structurel	ثنائية البنيوي	38
Dysfonction	اختلال وظيفي	39
Échantillon	عينة	40
effet d'hystérésis	أثر التباطؤ (التخلف)	41
effet émergent	أثر طارئ	42
Empirisme	إمبريقية (تجريبية)	43
Endogamie	زواج داخلي	44
entrepreneur de morale	مقاول أخلاق	45
entreprise politique	مؤسسة سياسية	46
Entretien	مقابلة	47
équivalent fonctionnel	تكافؤ وظيفي	48
espace public	فضاء عمومي	49
espace social	فضاء اجتماعي	50
État	الدولة	51
Ethnocentrisme	المركزية العرقية (الإثنوية)	52

Éthos	إيتوس	53
Étiquetage	وضع العلامة (الوسم)	54
Exogamie	زواج خارجي	55
fait social	واقعة اجتماعية	56
fonction latente	وظيفة	57
fonction manifeste	وظيفة بارزة	58
Fonctionnalisme	نزعة وظيفية	59
fractions de classe	أقسام الطبقة	60
frustration relative	إحباط نسبي	61
groupe de pairs	مجموعة الأزواج	62
groupe de référence	مجموعة المرجع	63
groupement de domination	تجمع هيمنة	64
Habitus	استعداد	65
Holisme	نزعة كليلنية	66
homo clausus	إنسان منغلق (سري)	67
homo oeconomicus	إنسان اقتصادي	68
Homogamie	تجانس الزواج	69
idéal-type	مثال – نموذج	70
Inceste	زنا المحارم	71
incitations sélectives	تحريضات منتقاة	72
individualisme méthodologique	فردانية منهجية	73
institution totale	مؤسسة شاملة	74
interactionnisme symbolique	تفاعلية رمزية	75
Intérêt	مصلحة	76
jugement de valeur	حكم قيمة	77
légitimité charismatique	مشروعية كارزمية	78
légitimité légale-rationnelle	مشروعية قانونية – عقلانية	79
légitimité traditionnelle	مشروعية تقليدية	80
loi d'airain de l'oligarchie	قانون حديدي للأوليغلرشيا	81
loi des trois États	قانون الحالات الثلاث	82

loi du monopole	قانون الاحتكار	83
lutte des classes	صراع الطبقات	84
étude ethnographique	دراسة إثنوغرافية	85
Misérabilisme	نزعة بؤسوية	86
Monographie	أفرودة	87
monopole de la violence physique légitime	احتكار العنف الفيزيقي الشرعي	88
neutralité axiologique	حياد أكسيولوجي	89
normes juridiques	معايير قانونية	90
normes sociales	معايير اجتماعية	91
objectivation participante	توضيع مشارك	92
objectivation sociale	توضيع اجتماعي	93
objectivation sociologique	توضيع سوسيولوجي	94
Objectivisme	نزعة موضوعية	95
observation directe	ملاحظة مباشرة	96
observation participante	ملاحظة مشاركة	97
Ordre	نظام	98
orthopédie sociale	طب عظام اجتماعي	99
Panel	تحقيق الجدول	100
Paradigme	براديغم (أنموذج)	101
paradoxe de l'action collective	تناقض الفعل الجمعي	102
passager clandestin	مسافر سري	103
physique sociale	فيزياء اجتماعية	104
plus-value	فائض القيمة	105
Populisme	نزعة شعبوية	106
Positivisme	نزعة وضعية	107
Prénotions	أفكار مسبقة	108
professions et catégories socioprofessionnelles	مهن وفئات سوسيومهنية	109
prophétie autoréalisatrice	نبوءة متحققة ذاتيا	110

Quantophrénie	الولع بالتكميم	111
Questionnaire	استبيان	112
rapport aux valeurs	الارتباط بالقيم	113
Rationalisation	عقلنة	114
Rationalité	عقلانية	115
relativisme culturel	نزعة نسبية ثقافية	116
représentations sociales	تمثلات اجتماعية	117
rites de passage	طقوس الانتقال (المرور)	118
rites d'interaction	طقوس التفاعل	119
Rôle	دور	120
socialisation primaire	تنشئة اجتماعية أولية	121
socialisation secondaire	تنشئة اجتماعية ثانوية	122
Société	مجتمع	123
Socioanalyse	تحليل اجتماعي	124
solidarité mécanique	تضامن ميكانيكي (آلي)	125
solidarité organique	تضامن عضوي	126
Sondage	استطلاع	127
sondages d'opinion	سبر آراء	128
sous-culture	ثقافة فرعية	129
Statut	وضع	130
structure de capital	بنية رأس المال	131
suicide altruiste	انتحار غيري	132
suicide anomique	انتحار لا معياري (فوضوي)	133
suicide égoïste	انتحار أناني	134
système de dispositions	نظام الاستعدادات	135
taux social du suicide	نسب (معدلات) اجتماعية للانتحار	136
Typification	نمذجة (تصنيف)	137
variations concomitantes	متغيرات متوافقة	138
volume de capital , 96, 109.	حجم رأس المال	139

الدروس الأولى في

علم الاجتماع

فيليب ريتور

هذا الكتاب هو محاولة لتقديم أساسيات علم الاجتماع في صورة واضحة، بسيطة ومركزة في قسمين: الأول خصص لموضوع السوسيولوجيا نشأتها، مسعاها العلمي، مناهجها وأهم تياراتها وما أثارته هذه القضايا من نقاط خلافية وطروحات متباينة تبرز تعدد وتنوع المنطلقات المنهجية وأثرها الإيجابي على الدراسات السوسيولوجية. أما الثاني فقد أفرد لبعض المواضيع الرئيسية في علم الاجتماع من ثقافة، تنشئة وسلطة، ضبط وتنضيد اجتماعين، رأي عام وهي المواضيع التي شكلت مقاربات ثرية في تناول الظواهر الاجتماعية بالتحليل وتسليط الضوء عليها من زوايا مختلفة هدفها الوصول إلى نتائج مثمرة.

لذا فالكتاب يمثل خلفية نظرية موضوعية - بعيدة إلى حد ما عن تلوين علم الاجتماع بلون إيديولوجي، ديني أو سياسي؛ وهو كذلك قاعدة ضرورية لا بد من الانطلاق منها لكل دراس للسوسيولوجيا، يوسع أفقه المعرفي الخاص بهذا الفرع ويمكنه من امتلاك أداة إبستميولوجية ورؤية شاملة، حتى وإن انطلقت من جزئية سوسيولوجية وهو أمر جد مشروع، لكن بعيدا عن كل رؤية شوفينية أي اجتماعوية تنسينا الجوانب الأخرى للإنسان ككائن حي، ميتافيزيقي، تاريخي، ....إلخ وليس فقط اجتماعي.

المؤلف: فيليب ريتور، أستاذ وباحث بعدة جامعات ومعاهد فرنسية له العديد من الدراسات والكتب في علم الاجتماع لا سيما الكتب التي تعرف بفرع السوسيولوجيا و عرف الكاتب أكثر باشتغاله حول سوسيولوجيا التواصل السياسي.

المترجم: محمد جديدي، أستاذ بجامعة قسنطينة 2 (الجزائر)، كاتب ومترجم نقل إلى العربية كتابين على علاقة بالدراسات السوسيولوجية هما: ماكس فيبر ومفارقات العقل الحديث لمؤلفه فيليب راينو، وكتاب هابرماس والسوسيولوجيا لصاحبه ستيفان هابر.





منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com